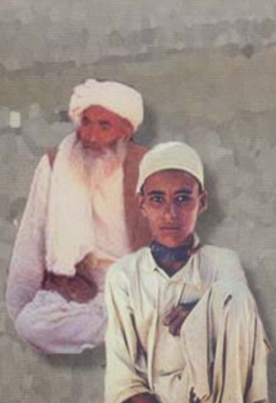
عتيق رحيمي

أرضٌ ورماد

ترجمة إسكندر حبش

رواية



دار الآداب

عتيق رحيمي

أرض ورماد

رواية

ترجمة: اسكندر حبش

دار الآداب - بيروت

أرض ورماد

أرض ورماد

عتيق رحيمي/ روائيّ أفغانيّ

الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 123 4-11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

مقدّمة

كانت الحقيقة عند الروحانيّين الفرس، بمثابة مرآة مهشّمة، كلّ إنسان يمرّ من أمامها، يستلّ منها قطعة إذ يؤمن أنّها تحوي الحقيقة كلّها. أفغانستان ـ التي كانت فيما مضى وحتّى العهد القريب أرض الصوفيّين والروحانيّين تبدو اليوم كهذه المرآة. حطّمتها الفصائل المتحاربة فيما بينها، بعد نضالها ضدّ جيش «الاتّحاد السوڤياتيّ»، كما حوّلتها إلى بقاع متعادية، إذ نجد كلّ فصيل وقد أسّس ـ في الجزء الذي ارتضاه لنفسه وبسط سيطرته عليه ـ حكمه.

ولد عتيق رحيمي العام ١٩٦١ في كابول، وهو يعيش ويعمل اليوم في باريس. تابع دورسه في اللّيسيه الفرنسيَّة ـ الأفغانيّة، قبل أن ينتقل إلى باكستان بسبب الحرب، ومن ثمّ طلب اللّجوء السياسيّ إلى فرنسا، وقد حصل عليه، وهناك تابع أطروحته الجامعيَّة للحصول على دكتوراه في الاتّصالات السمعيّة ـ

البصريّة من جامعة السوربون. يعمل حاليًّا، في إخراج الأفلام الوثائقيَّة. وقد أصدر مؤخّرًا روايته الأولى «أرض ورماد» في ترجمة فرنسيَّة عن منشورات (P.O.L.).

ثمَّة سببان دفعا عتيق رحيمي إلى كتابة هذه الرّواية الأولى، إذ يقول في مقابلة أجرتها معه مجلّة «أخبار أفغانستان» (العدد ١٨ الصادرة في باريس) إنَّ الهدف الأوّل هو هدف إيديولوجيّ، أراد أن يبادر إلى معالجة سياسيَّة لأحوال بلاده. أمّا الهدف الثاني، فهو هدف أدبيّ. «فيما يتعلّق بالهدف الأوّل، يعرف الجميع موقفي من مسألة الهويّة الأفغانيّة، حين وصلت إلى فرنسا، وجدت الجميع يتحدّثون عن الأفغان بصفتهم شعبًا فخورًا بنفسه، محاربًا، لا يتحدّث أحد عن هذا الشعب الذي تمزّق داخليًّا بشكل كامل. لذلك أردت أن أُخرج إلى العلن آلام هذا الشعب، حاولت أن أتحدّث عن نفسيّة شعبي».

أمّا الهدف الثاني فيكمن في أنّ «أدبنا (أدب أفغانستان) أدب شعريّ. تُكتب الفلسفة عبر القصائد، يتحدّث العلماء عبر القصائد، يتحدّث رجال السياسة عبر القصائد، يتحدّث المؤرّخون عبر القصائد. ليس هناك سوى مكان صغير للكتابة الروائيَّة، ما عدا

شخصين أو ثلاثة، من القصّاصين، هم أكرم عثمان وسبوجماي زرياب وزوجها رهناورد زرياب، لا نجد سوى روايات قليلة جدًّا في الأدب الأفغانيّ. بالتأكيد الرواية التي كتبتها ليست طويلة إلّا أنّني رغبت في الابتعاد عن الشعر، لست ضدّ الشعر، لكنّنا معه، سنبقى مسجونين داخل الرّمزيّة. في الرواية، نشعر بحرّيَّة أكبر، نستطيع أن نذهب إلى أبعد، نستطيع الدخول في نفسيّة النّاس وأن نتحدّث بشكل أكثر شفافيَّة».

هل فعلاً تحدّث عتيق رحيمي بشكل أكثر شفافية؟

نحن في هذه الزّاوية، أمام شعب يواجه الرّعب، في كلّ لحظة من لحظات حياته. يبدأ كلّ شيء عبر مجزرة ارتكبها الجيش السوڤياتيّ بحقّ قرية أفغانيَّة. لم ينجُ من هذه المذبحة، سوى جدّ عجوز يدعى داستاغوير وحفيده ياسين الذي أصيب بالصمم. لم يعد يعرف أنّه لن يسمع مجدّدًا انسيابات مياه الينابيع الحريريَّة من الجبال، ولا زقزقة العصافير، ولا صوت النراجيل التي تعترف عبر فرقعة مياهها ولا حتّى أيضًا صرخات الحرب الفاحشة: «القنبلة كانت قويّة جدًّا. أسكتت كلّ شيء. أخذت الدبّابات أصوات النّاس

ورحلت. حتّى أنّها أخذت معها صوت جدّي. . لم يعد يستطيع جدّي الكلام، لم يعد يستطيع توبيخي». . هذا ما يظنّه ياسين، إلّا أنّ العجوز لم يصل أبدًا إلى نهاية رحلة الألم. كان يرغب في الذهاب لطعن ابنه مراد بشفرة الحزن، رغب في أن يخبره عن موت والدته وزوجته وأخيه وعن عاهة ابنه. كان مراد يعمل في منجم فحم، يتعلّم فيه أن يُصبح بروليتاريًّا مثاليًّا كي يستطيع النظام الشيوعيّ أن يعتمد عليه وأن يؤسّس من خلاله أفغانستان الجديدة.

يروي الكتاب، قصّة هذه الرّحلة التي يقوم بها العجوز إلى المنجم برفقة حفيده. رحلة بطيئة جدًّا عبر أفغانستان. عبر هذا البلد الذي تحجّر وتعظّم: جسر مهدّم، بحيرة جفّت في طبيعة فخمة، مرصد حارس سيّئ المزاج أغلق على نفسه ليعيش وحيدًا، طريق يضيع في الأفق، تاجر يفكّر بالعالم. . وإذا أضفنا إلى ذلك آلام الذين بقوا على قيد الحياة، لكان أمامنا كلّ شيء. طوال الطريق، لا يتوقّف الجدّ عن الندم لأنّه استطاع الهرب من القذائف، لأنّ الجحيم، في النهاية، هم الذين لم يموتوا «الأموات أسعد من الأحياء.» إذ كيف يستطيع المرء أن يتعايش مع الألم، يقول له التاجر ـ الذي يلتقيه على الجسر بانتظار

الباص الذي سيقلّه إلى المنجم ــ «أتعرف، يا والدي، إنّ الألم، إمّا أن يذوب ويسيل عبر العيون وإمّا يصبحُ قاطعًا مثل شفرة تنبثق من الفم، وإمّا أيضًا، يتحوّل إلى قنبلة داخليّة، قنبلة تنفجر ذات يوم وتفجّرك معها.»

إنّنا في أفغانستان، والرّجال لا يبكون أبدًا، ومع ذلك، ينتهي الأمر بالعجوز بأن يدع حزنه ينساب، حيث الدّموع تسيل بهدوء لغاية صدره. دموع تتدحرج في الغبار، كلمات تجد صعوبة في التعبير عن الألم والاضطلاع به، وبخاصة إذا كنّا نبحث فيها عن المنطق.

المترجم

إهداء المؤلف:

إلى أبي،

إلى الآباء الآخرين

لقد سرقت الحرب دموعهم.

له قلبٌ كبير جدًّا، كبير مثل
حزنه.

رفعت حسيني

ـ أنا جائع.

تُـخرجُ تفّاحة من البقجة الحمراء، «الغول ـ إي ـ سيب»[1]، وتفركها على ثيابك المغبرّة. التفّاحة أوسخ منها. تعود وتضعها في البقجة، لتُخْرِج أخرى، أنظف. تمدّ بها إلى حفيدك، ياسين، الجالس قربك، الذي يضع رأسه على ذراعك المتعبة. يمسك الطفل التفّاحة بيديه الصغيرتين القذرتين، يقرّبها من فمه. لم تكن أضراسه قد نبتت بعد. يحاول أن يقضم التفّاحة بأنيابه. تعتري رعشة خدّيه النحيلين الغائرين. تتقلّص عيناه المرهقتان بعدُ أكثر. التفّاحة حامضة الطعم. ينكمش أنفه الصغير؛ يشخر.

جلستَ مديرًا ظهرك إلى الشمس الخريفيَّة،

---

(١) حرفيًا «زهر التفّاح»، وتعني العبارة قماشة شعبيّة جدًّا في كلّ آسيا الوسطى، حيث يمثّل الشكل الأبيض المطبوع على خلفيّة حمراء، زهور تفّاح، نمطيّة الشكل.

مستندًا إلى درابزين الجسر؛ هذا الجسر، الواقع في شمال مدينة «پول ـ إي ـ خورمي» ـ يصل ما بين حافّتيّ النهر الذي جفّ. من هُنا يمرّ الطريق من شمال أفغانستان إلى كابول. إن استدرتَ إلى يسار مدخل الجسر وسرتَ فوق الدرب الذي يتلوّى ما وراء التلال القاحلة، لوصلتَ إلى منجم الفحم في كاركار...

تنتزعك همهمات ياسين من فوق درب المنجم. أنظرْ، لا ينجح حفيدك في قضم هذه التفّاحة. أين وضعت سكّينتك؟ تفتّش جيوبك وتجدها. تأخذ التفّاحة من بين يديّ حفيدك، تقطعها نصفين، ومن ثمّ، نصفين آخرين، تعود لتعطيه إيّاها كلّها. تخبّئ السكّين في إحدى جيوبك، تطوي ذراعيك على صدرك.

مضى وقت لم تمضغ فيه تبغك. أين وضعت علبة «الناسوار»[١]؟ تفتّش جيوبك مجدّدًا وتجدها. تضع جرعة في فمك، قبل أن تعود وتخفي العلبة. تلقي نظرة بطرف عينك في مرآة الغطاء. عيناك المرهقتان غائرتان في حدقتيهما. لقد ترك الزمن بصمة مروره قرب عينيك، بصمة مصنوعة من

(١) مزيج مخدّر ذو لون أخضر.

خطوط متعرِّجة، مثل ديدان متضافرة حول فوهتين، ديدان جائعة تترصّد. حُلَّت عقدة العمامة الكبيرة التي ترتديها. يُغرق وزنها رأسك بين كتفيك. إنّها مليئة بالغبار. وربّما كان ذلك ما يجعلها أثقل. أصبح لونها الأصليّ، الذي بهت من جرّاء الشمس أو الغبار، لونًا غير معروف.

لتضعْ إذًا هذه العلبة في مكانها! لتفكِّرْ بأمر آخر، لتصوّبْ نظرتك إلى مكان آخر.

تضع العلبة في إحدى جيوبك. تداعب لحيتك المليئة بالشّيب، ترفع ركبة فوق أخرى وتثبّت ظلّك التعب الذي يزاوج ظلّ سياج الجسر المنتظم.

تجتازُ شاحنةٌ عسكريَّة، ترفع نجمة حمراء على بابها، الجسرَ. تقطع عليك نومك وتثير الغبار. يرتفع الغبار ويجتاح الجسر. ثمّ، بهدوء، يستقرّ. يستقرّ في كلّ مكان، على التفّاحة، على العمامة، على الرّموش. رغبت في حماية تفّاحة ياسين بيدك.

ـ توقّفْ!

يزعق حفيدك، لنر الأمر. يدك تضايقه في أكل كلّ تفّاحته.

ـ ربّما كنت تفضّل أن تبتلع الغبار؟!

ـ توقّف!

دعه وشأنه. اهتمّ بنفسك. يجتاح الغبار فمك ومنخريك. تبصقُ «الناسوار» بعيدًا. بعد خمس مضغات مخضوضرة أخرى. بذيل عمامتك، تغطّي فمك وأنفك. تلقي نظرة على تخشيبة حرس الحاجز، المدهونة بالأسود، على مدخل الجسر. هنا، حيث تبدأ الطريق إلى المنجم. يتسرّب دخان من نافذة صغيرة. بعد عدّة ثوان من التردّد، تُمْسِكُ بيد درابزين الجسر الصدئ، بينما بالأخرى، تمسك البقجةَ الحمراء. تقف وتتّجه وأنت تعرج نحوَ التخشيبة. ينهض ياسين بدوره ويتبعك، ممسكًا بسترتك. تصلان إلى حدود التخشيبة. تُدْخِلُ رأسكَ في الكوّة التي لا زجاج لها. الداخل غارق بالدخان، تتسرّب منه رائحة حطب ونفحة ساخنة ودبقة. الحارس في الوضعية ذاتها التي شاهدته عليها قبل قليل، مسندًا ظهره إلى أحد الجدران. لا يزال ساكنًا. ربّما «كيبّته»(١) فقط، أصبحت مائلة أكثر. لا شيء أكثر من ذلك! ما تبقّى، لا يزال على حاله، حتّى السيجارة، المحروق نصفها التي على طرف شفتيه اللتين لا لون لهما.

لتسعلْ إذًا!

---

(١)كيبّة: قبعة عسكريّة فرنسيّة الأصل.

حتّى أنّ صوت سعالك لا يصل إلى أذنيك، فكيف بالأحرى إلى الحارس! لتسعل مرّة جديدة، هيّا، أقوى! لم يسمع أيّ شيء بعد. ربّما خنقه الحطب. تناديه.

ـ يا أخي..

ـ ماذا تريد منّي بعد، «بابا جان»[١].

شكرًا يا إلهي، إنّه يتكلّم. لا يزال حيًا، لكنّه بقي ساكنًا وعيناه مقفلتان تحت ظل الكيبّة. يتحرّك لسانك، يستعدّ لقول شيء ما. لا تقطع عنه الكلام!

ـ ... ستجعلني مجنونًا في نهاية الأمر! قلت لك أربعين مرّة[٢]: سأرمي نفسي تحت عجلات أوّل سيّارة تمرّ من هنا، سأرجوها أن توصلك إلى المنجم! ماذا تريد أكثر من ذلك؟ هل شاهدت أيّ سيّارة تمرّ حتّى الآن؟ إذًا! ربّما كنت بحاجة إلى شاهد.

ـ لا سمح الله يا أخي المحترم! أعرف جيّدًا أنّه لم تمرّ بعد أيّ سيّارة. لكن، من يعرف، ربّما قد

---

(١)حرفيًا: أبي العزيز، هي تسمية مألوفة، كما أنّ فيها الكثير من الاحترام، توجّه إلى شخص مسنّ.

(٢)تستعمل بعض الشعوب تعبير مائة مرّة، إلاّ أنّ اللّغة الفارسيّة، تفضّل رقم ٤٠، حيث يتأتّى الرّمز القويّ، من الديانة الإسلاميّة.

تنسانا، لسوء الحظّ. . .

ـ لماذا تريد أن أنساك بابا جان؟ إن أردت سماع قصّتك فأنا أحفظها عن ظهر قلب. أتحدّى؟. . . ابنك يعمل في المنجم، أنت هنا مع ابنه كي تزوره، أنت. . .

ـ أيّها الرحمن، لقد حفظت كلّ شيء. . . أنا من فقد عقله، أشعر كأنّي لم أقل لك شيئًا. . . أحيانًا أشعر أنّ الآخرين ينسون مثلي. . . أستميحك عذرًا، يا أخي. . . لقد أزعجتك.

في الحقيقة، أنت مغتمّ. من فترة طويلة لم يهتمّ بك صديق أو حتّى شخص مجهول، منذ فترة طويلة، لم تطيّبْ خاطرك أيّ عبارة رقيقة أو غريبة. . . ترغب في قول شيء ما وأن تسمع شيئًا كجواب. هيّا، تكلّم! لكن من غير المحتمل أن تسمع إذًا! لا يريد الحارس أن يستمع إليك! إنّه مشغول بأفكاره. لقد سمّرته وحدته. دعه وشأنه.

تبقى منتصبًا أمام التخشيبة. صامتًا. تبتعد نظرتك، تسير عبر تعرّجات الوادي. الوادي مجدب، مليء بالعوسج، ساكن. . . عند طرف الوادي، هناك مراد، ابنك.

تغادرُ نظرتُك الوادي. تديرها إلى داخل

التخشيبة. تريد أن تقول للحارس إنّك إن بقيت هنا. بانتظار سيّارة، فذلك، فقط، بسبب حفيدك ياسين. لو كان الأمر عائدًا لك لمشيت منذ فترة طويلة، سيرًا على الأقدام. لا تخيفك أربع ساعات أو خمس من المشي. أردت أن تقول له إنّك من الصباح حتّى المساء، تعمل في الأرض، واقفًا على ساقيك، بأنّك رجل شجاع، بأنّ. . . وماذا أيضًا؟ هل من الضروريّ أن تقول ذلك كلّه للحارس؟ ماذا يعنيه من كلّ هذا الأمر؟ لا شيء! دعه وشأنه إذًا. نم بطمأنينة يا أخي. . إنّنا راحلان. لن نزعجك مرّة أخرى، أبدًا.

لكنّك لا تتحرّك. تبقى مسمرًا من دون أن تنطق بكلمة.

يشدّ صوتُ الأحجار التي تتلاطم عند قدميك انتباهك نحو ياسين، القائم هنا، مقرفصًا، محاولاً أن يسحق قطعة تفّاح بين حجرين.

ـ ماذا تفعل؟ أيّتها الرّحمة الإلٰهيّة! كُلْ هذه التفّاحة!

تُمْسِكُ ياسين من كتفيه وتوقفه. يصرخ الصبيّ:

ـ كفى! اِتركني! لماذا لا يُصدر هذا الحجر صوتًا؟

جاءت رائحة الحطب التي تتسرّب من التخشيبة،

لتمتزج في تلك اللّحظة، مع زعيق الحارس:
ـ لا بدّ أن يفقد المرء صوابه معكما أنتما الاثنين!
ألا تستطيع أن تجعل حفيدك يصمت للحظة؟

لا تأخذ وقتك كي تعتذر أو بشكلٍ أدقّ لا تمتلك الشجاعة. تمسك ياسين بعجل وتجرّه بقوّة باتّجاه الجسر. غاضبًا، تلقي بنفسك في مكانك على الدرابزين، تضع بقجتك إلى جانبك. بينما تحتضن حفيدك، تزعق:
ـ لتبقَ ساكنًا قليلاً!

لمن تقول ذلك؟ لياسين؟ وهو الذي لا يسمع حتّى ضجّة الحجارة؟ إذًا ماذا عن صوتك الضعيف والمرتجف! لقد أصبح عالم ياسين عالمًا آخر؛ عالمًا صامتًا. لم يكن أصمّ، لكنّه أصبح كذلك. هو نفسه لم يعِ الأمر بعد. يندهش من أنّ لا شيء يُصدر ضجّة. في حين كان كلّ شيء مختلفًا منذ أيّام خلت. تخيّل أن تكون طفلاً مثل ياسين، طفلاً كان يسمع لوقت قريب مضى، ولا يعرف حتّى ما معنى أن لا يسمع مجدّدًا. لماذا؟ بالضبط، سيكون من الغباء أن تقول له إنّه أصبح أصمّ! لا تسمع، لا تفهم، لا تتصوّر أنّك أنت نفسك لا تسمع. تعتقد أنّ الآخرين هم من أصيبوا بالصّمم. لم يعد للنّاس

صوت، لم يعد الحجر يُصدر صوتًا. العالم أصبح صامتًا. لكن لماذا يحرّك النّاس شفاههم إذًا.

يخفي ياسين رأسه الصغير المليء بالأسئلة تحت سترته.

تنتقل نظراتك إلى الجانب الآخر من الجسر، صوب النهر الجافّ الذي أصبح مرتع الأحجار السوداء والأنساغ المجدبة. تبتعد إلى ما وراء النهر، نحو الجبال في البعيد.. تختلط الجبال بخيال مراد، الواقف أمامك الآن يسألك:

ـ ما الذي أتى بك يا أبي؟ أتمنّى أن يكون كلّ شيء على ما يرام؟

منذ أكثر من أسبوع، يُسيطر عليك هذا الوجه وهذا السؤال، ليلاً نهارًا. يقضم هذا السّؤال دمك. أليس إذًا، رأسك، غير جدير، بإيجاد جواب؟ آه، لو يختفي هذا السّؤال فقط. لو نستطيع أن لا نقول لماذا أبدًا! جئت لتستعلم عن أخبار ابنك، ببساطة. لكن، في النتيجة، ومثل أيّ أبّ، تفكّر بابنك من وقت إلى آخر. هل هذا ممنوع؟ كلا. ولكن هذا لا يمنع أنّك تعرف، لماذا أنت هنا.

تبحث عن علبة «الناسوار» في إحدى جيوبك.

تفرغ قليلاً منها في راحة يدك وتضعها تحت لسانك. ليت الأمور تستطيع أن تكون بسيطة فقط، ممتعة، مثل «الناسوار»، مثل النّوم... وتهرب نظرتك إلى البعيد، إلى القمم البعيدة.

لا يزال وجه مراد يختلط مع الجبال. الصخور تزداد سخونة، تصبح متأجّجة. كأنّها تتحوّل إلى جمر لاهب، كأنّ الجبل بأسره ليس سوى جمرة. تشتعل الجمرة، تهبط الجبل، وتنسكب في النهر القاحل القريب منك. أنت على ضفّة ومُراد على الأخرى. يستمرّ مراد في سؤالك عن سبب زيارتك. لماذا أنت وحدك مع ياسين؟ لماذا أعطيته حجارة صامتة؟

يبدأ مراد النزول في مجرى النهر. تبدأ بالصراخ:

ـ مراد، ولدي، توقّفْ! إبقَ مكانك. النهر مشتعل ستحرق نفسك! لا تأتِ!

تسأل نفسك من يستطيع تصديق شيء مماثل. نهر يحترق؟ إنّك تهذي! أنظرْ، يجتاز مراد النّهر من دون أن يحترق. كلاّ، لا بدّ أنّه يحترق لكنّه لا يُظهر ذلك. مراد بطل. لا يبكي. أنظرْ إليه. جسده كلّه ينضح عرقًا. تعود إلى الصراخ:

ـ مراد، توقّف! النهر يحترق!

ولا يتوقّف مراد عن التقدّم نحوك حاملاً سؤاله معه:

ـ لماذا جئت؟ لماذا جئت؟

من ناحية ما، من لا مكان، ينبثق صوت أمّ مراد.

ـ داستاغوير، قُل له أن يبقى هناك، هلمّ، إذهبْ أنت، اِجتزِ النّهر! اذهبْ وجفّفْ عرقه بوشاحي «الغول ـ إي ـ سيب»، ببقجتك! سأضحّي بأوشحتي كلّها في سبيل حياة ابني!

يرتفع جفناك. تشعر بجسمك يسبح في عرق بارد. ليتك تستطيع فقط أن تنام بطمأنينة. ها قد مضى أسبوع لم تنمْ فيه بسلام. ما إن تغلق عينيك، حتّى يأتي مراد وأمّه، ياسين ووالدته، يأتي الغبار واللّهب. الصراخ والدموع... وتستيقظ مجدّدًا. تحترق عيناك. تحترقان من النعاس. لا تريان بعدُ أنّهما متعبتان، منهكتان. ولشدّة الإنهاك والأرق، تغرقان كلّ مرّة، في نصف إغفاءة. نصف إغفاءة تتدافع فيها الصور... كما لو كنت لا تعيش إلاّ من

أجل هذه الذكريات وتلك الصور. ذكريات وصور ما عشته وما رغبت في أن لا تعيشه؛ ربّما أيضًا هي رؤيا ما ينتظرك بعد وما لا ترغب في أن تحياه.

ـ يجب أن تنام مثل طفل، مثل ياسين. مثل ياسين؟

كلاّ، ليس مثله! كأيّ طفل ما عدا ياسين. يتأوّه ياسين ويبكي في نومه. لا يختلف رقاده عن رقادك.

عليك أن تنام كوليد، بلا صور، بلا ذكريات، بلا أحلام. كوليد، عليك أن تعيد الحياة من البداية.

واحسرتاه، هذا أمر مستحيل.

تريد أن تعيش مرّة جديدة، حتّى وإن كان ذلك ليوم واحد، لساعة واحدة، لدقيقة واحدة، لثانية واحدة.

تفكّرُ مجدّدًا في اللّحظة التي غادر فيها مراد القرية، في اللّحظة التي اجتاز فيها عتبة الباب. كان عليك أن ترحل أنت أيضًا، أن تصطحب زوجتك، أطفالك، أحفادك. وأن ترحل بعيدًا، إلى قرية أخرى. كان بمقدورك الذهاب إلى «پول ـ إي ـ خومري». ما همّ لو لم تحصل على أرض لتزرعها.

ليذهب القمح إلى الجحيم! لكنتَ لحقتَ بمراد، لمساعدته في العمل بالمنجم. لَمَا كان عليك أن تشرح الآن سبب حضورك.

واحسرتاه...

خلال هذه السنوات الأربع التي أمضاها مراد في المنجم، لم تتسنّ لك فرصة واحدة كي تقوم بزيارته. أربع سنوات مضت منذ أن عهد إليك بزوجته الشابّة وبابنه ليلتحق بالمنجم كي يكسب قُوْته.

في الحقيقة، لقد هرب مراد من القرية ومن سكّانها، أراد الابتعاد فرحل... شكرًا يا ربّي، لقد رحل...

منذ أربع سنوات، حاول الحقير، ابن جارك يعقوب شاه، أن يصادق زوجة مراد، فقامت كنّتك بإخبار ابنك. أسرع مراد، متسلّحًا بمجرفة، إلى بيت يعقوب شاه، وما إن وصل، حتّى استدعىٰ ابنه، ومن دون شرح شقَّ له جمجمته. حمل يعقوب شاه ابنه الجريح إلى مجلس القرية فحكم على مراد بالسّجن ستة أشهر.

بعد إطلاق سراحه، وضَّبَ مراد أغراضه ورحل إلى المنجم. لم يعد إلى القرية منذ ذلك الوقت، إلاّ

في أربع مناسبات. لقد مضى شهر منذ زيارته الأخيرة، وها إنّك تصل إليه، مصطحبًا ابنه. لا بدّ أن يثير ذلك الأسئلة!

ـ أريد أن أشرب!

عند سماع صرخة ياسين تنزلق نظرتك من الجبل على مجرى النّهر المجزّع، ومن النّهر إلى شفتيّ حفيدك الجافّتين، الذي يطالب بالماء بعصبيّة.

ـ من أين تريدني أن آتيك بالماء يا بنيّ؟

تلقي على عجل نظرة باتّجاه تخشيبة حارس الحاجز. لا تجرؤ على أن تطلب المياه مرّة جديدة من الحارس، لأنّك في الصباح قد غَرَفْتَ من جَرَّته لياسين، فلو طلبت منه مجدّدًا، لغضب من دون أدنىٰ شكّ، ولَرَمَى الجرّة في وجهك... من الأفضل أن تطلب ذلك من مكان آخر...

تُظلِّلُكَ يَدُكَ التي تضعها فوق عينيك وتنظر إلى الطرف الآخر من الجسر. يوجد هناك حانوت صغير حيث توقّفتَ هذا الصباح لتسأل عن الطريق إلى المنجم، وقد أجابك الرّجل بودّ كبير. عُد إلى هناك واطلبْ منه ماء! تقفُ نصف وقفة كي تسير. لكنّك تبقى مسمّرًا في مكانك. وإذا مرّت سيّارة؟ وإن لم

يعد الحارس يراك في موقعك؟ كلّ هذا الانتظار يذهب سدى! كلاّ، اِبقَ حيث أنت! ليس الحارس من النوع الصبور، لن يبحث عنك، لن يناديك. . . كلاّ يا داستاغوير، لتكن متّزنًا وابقَ حيثما أنت.

ـ أريد أن أشرب! أن أشرب! أن أشرب!

ينتحب ياسين. تقرفص، تلتقط تفّاحة من البقجة وتمدّها له.

ـ لا، أريد ماء، ماء!

تدع التفّاحة تتدحرج على الأرض، تنهض بما تبقّى لك من عزيمة، تلتقط ياسين بيد، والبقجة باليد الأخرى وتسرع نحو الحانوت وأنت تدمدم.

إنّه كوخ صغير صُنع من روافد ومن ثلاثة جدران من التراب المدكوك. ثمّة أطر خشبيّة، نُظّمت بشكل فوضويّ إلى حدّ ما، تشكّل واجهته. وبدلاً من الزجاج، شُدَّت ألواح بلاستيكيَّة على الأطر. ثمَّة رجل جالس خلف كوّة. له لحية سوداء، تغطّي جمجمته قلنسوة قيطانيّة[1]. يرتدي صدريّة سوداء. كان جذعه النحيل يختفي بشكل شبه كامل خلف ميزان ضخم. منحني الرّأس، غارقًا في قراءته. عند

(١)مصنوعة من خيوط حريريّة ومعدنيّة.

سماعه وقع خطواتك ودمدماتك، يرفع نظره ويثبّت نظارتيه. بالرّغم من ملامحه القلقة، إلاّ أنّنا نصدم ببريق عينيه التي تزيد في حدّتهما العدسات المكبّرة. ترتسم على شفتيه ابتسامة عطوفة؛ يرحّب بك ويسأل:

ـ أعائد أنت من المنجم؟

تبصق مضغة «الناسوار» أرضًا وتجيب بتواضع:

ـ واحسرْتاه! يا أخي. لم نذهب إلى هناك بعد. إنّنا ننتظر مرور سيّارة. حفيدي عطشان جدًّا. لو ترأَّفْتَ به وأعطيتَه القليل من الماء...

أمسكَ البائعُ بجرّته وسكبَ الماء في وعاء نحاسيّ.

خلف ظهره، على الحائط، ثمَّة رسم يمثّل مشهدًا: خلف صخرة كبيرة، يُشاهَدُ رجل يمسك بإبليس من ذراعه؛ وينظر الاثنان معًا، خفية، إلى عجوز سقط في حفرة.

يمدّ البائع بالوعاء إلى ياسين ويسألك:

ـ هل تأتي من بعيد؟

ـ من أبقول. يعمل ابني في المنجم. أنا ذاهب

لزيارته.

تنظر مليًّا إلى تخشيبة الحارس.

ـ هل من مشكلة ما هناك؟

يحاول البائع أن يجاذبك أطراف الحديث لكنّك تبقى مشدودًا إلى التخشيبة. تسكت. كما لو أنّك لم تسمع شيئًا. في الحقيقة، لم ترغب في أن تسمع. أو ربّما لا تريد أن تجيب. هيّا يا أخي، دعْ داستاغوير وشأنه.

ـ يقال إنّ الرّوس في الأسبوع الماضي، قد أبادوا القرية بأكملها، هل هذا صحيح؟

لن تجدَ السلام مُطلقًا. جئتَ لتبحثَ عن الماء، لا عن الدموع. لا شيء سوى نقطة ماءٍ! هيّا يا أخي، من فضل ربّك، لا تضع ملحًا فوق جراحنا.

ماذا هناك يا داستاغوير؟ منذ لحظات قليلة، كنت مغتمًّا. كنت على استعداد لأن تتحدّث مع أيّ شخص، في أيّ موضوع. ها إنّ شخصًا، أخيرًا، تستطيع أن تعترف له بمكنونات صدرك. شخصٌ تُشعرك نظرتُه بالراحة. قلْ شيئًا! ومن دون أن تدير

عينيك من على تخشيبة الحارس، تجيب:
ـ أجل يا أخي. كنتُ هناك. رأيتُ كلّ شيء. رأيت موتي بأمّ عينيّ.
تسكتُ. لو تابعتَ لانجرفتَ في الحديث، ولفاتك مرور السيّارة.

رفع البائع نظّارتيه، مرّر رأسه من الكوّة ليرى ما يسترعي انتباهك. ما إن يشاهد التخشيبة حتّى يفهم ويقول:
ـ أخي العزيز، لا يزال الوقت مبكّرًا جدًّا. دائمًا، تمرّ السيّارة عند الثانية ظهرًا. أمامك ساعتان بعد.
ـ عند الثانية؟ لماذا لم يقل لي الحارس شيئًا؟
ـ ربّما لا يعرف الكثير! عليك أن لا تغضب منه. تمرّ السيّارات كيفما اتّفق. على كلّ حال، هل هناك شيء في هذه البلاد يحدث في موعده؟ اليوم...
ـ جدّي، أريد بعض «السنجت»[١].
قاطع صوتُ ياسين حديث الرّجل. تأخذُ الوعاء من يد ياسين. لم يشربْ بعد.

(١) العُنّاب.

ـ إشرب المياه أوّلاً.

ـ أريد سنجت!!!

تقرّب الوعاء من شفتيه وتشير له بحركة آمرة أن يفرغه في جوفه. يدير ياسين رأسه ويتكلّم بصوت ناحب.

ـ سنجت! سنجت!

عبر الكوّة، يمدّ البائع إلى ياسين بقبضة من السنجت. يأخذها الصبيّ ويجلس أرضًا عند قدميك. تبقى مسمّرًا مكانك، والوعاء في يدك، محاولاً أن تحافظ على هدوئك. «لا حول إلاّ بالله». تأخذ نفسًا عميقًا وتعلن بصوت منكسر:

ـ سيصيبني هذا الفتى بالجنون.

ـ لا تقلْ ذلك يا والدي. إنّه طفل وحسب. لا يستطيع أن يفهم.

تستلهم الله، بشكل أعمق من المرَّة الأولى وبمزيد من الأسى. تتابع:

ـ واحسرتاه يا أخي، ليست المشكلة في أنّه لا يفهم. لقد أصبح هذا الفتى أصمّ.

ـ ليشفه الله! ماذا حصل له؟

تشرب وعاء حفيدك وتتابع:

ـ لقد جعله قصف القرية أصمّ. لم أعد أعرف

كيف أفهمه. أحدّثه كما من قبل. أُوبّخه. . إنّها العادة فقط. . .

وأنت تتحدّث، تمدّ الوعاء عبر الكوّة. يمسكه الرّجل، تتنقّل نظرته المليئة بالرأفة، ما بين ياسين أوّلاً، ثمّ عليك أنت، وأخيرًا على الوعاء الفارغ. . . يفضّل أن يبقى صامتًا. ينسحب إلى داخل الدكّان من دون أن ينبس بكلمة. تبحث يده عن كوبٍ صغير على الرفّ. يملأه شايًا ويقدّمه لك.

ـ لترتشفْ جرعة من الشّاي يا أخي. أنت منهك. لن يغدرك الوقت. أعرف كلّ السيّارات الذاهبة إلى المنجم. إن وصلت إحداها، اعتمدْ عليّ كي أنبّهك.

تلقي نظرة باتّجاه تخشيبة الحارس، وبعد أن تتردّد قليلاً، تمسك بكأس الشاي.

ـ إنّك رجل طيّب القلب. ليرقد أمواتك بسلام!

حين شاهدك تشرب الشاي، ابتسم الرّجل ابتسامة مُرَحِّبَة.

ـ إن كنت تشعر بالبرد، أُدخلْ إلى داخل الحانة. يبدو كأنّ حفيدك يشعر بالبرد أيضًا.

ـ ليباركك الله، يا أخي، إنّنا على ما يرام هنا، إذ

ثمّة شمس. لا أريد أن أضايقك زيادة. زد على أنّه إن وصلت سيّارة.. سأشرب شايي وأستأذنك بالانصراف.

ـ أيّها الوالد المبجّل، قلتُ لك، للتوّ، إنّني سأنبّهك، إن مرّت سيّارة. تستطيع من هنا أن تشاهدها وهي تصل، حسنًا. إن لم ترغب في ذلك، فهذا شيء آخر.

ـ يشهد الله على كلامي يا أخي، ليست المسألة مسألة رغبة. المسألة أنّ الحارس ليس من النوع الذي يستمهل السيّارات.

ـ صدّقني يا والدي، قبل أن يعطيها الإذن بالمرور، وقبل أن يرفع الحاجز، سيستغرق الأمر وقتًا. زد على أنّ الحارس هذا ليس خبيثًا. إنّني أعرفه جيّدًا، فهو يُمْضي الكثير من وقته هنا، لكنّ الأسى هو ما جعله قاسيًا.

توقّف الرّجل لحظة، وضع سيجارة في طرف شفتيه وأشعلها، عاد للحديث بهدوء.

ـ أتعرف، يا والدي، إنّ الألم، إمّا أن يذوب ويسيل عبر العيون وإمّا يصبح قاطعًا مثل شفرة تنبثق من الفم، وإمّا أيضًا، يتحوّل إلى قنبلة داخليّة، قنبلة تنفجر ذات يوم وتفجّرك معها. إنّ

ألم فاتح، الحارس، هو مزيج من الثلاثة في الوقت عينه. حين يأتي لرؤيتي، يسيل حزنه مع دموعه، لكنّه، ما إن يكون وحيدًا في تخشيبته، حتّى يتحوّل إلى قنبلة. حين يخرج ويشاهد النّاس، يتحوّل حزنه إلى شفرة، يرغب في أن. . .

لم تسمع البقيّة. تتوه في أعماقك الداخليّة، هناك حيث تلبّدتْ كآبتك. وحزنك أنت؟ هل تحوّل إلى دموع؟ كلاّ، وإلاّ كنت بكيت. إلى خنجر؟ ولا إلى هذا أيضًا. لم تجرح بعد أحدًا. إلى قنبلة؟ لا زلت على قيد الحياة. أنت غير مؤهّل لأن تصف حزنك الذي لم يتّخذ شكله بعد. لا يزال الوقت باكرًا على ذلك. ليته يستطيع فقط أن يندثر حتّى قبل أن يتّخذ شكله، أن يختفي. . . سيختفي، من دون أدنى ريبة. أجل. . في اللّحظة نفسها التي سترى فيها مراد ابنك. . مراد أين أنت؟

ـ بابا، بماذا تفكّر؟

قطع سؤال الرّجل، رحلتك الداخليّة. تجيب بتواضع:

ـ لا شيء، كنت تتحدّث عن الحزن. . .

تعيد كأس الشاي إلى الرّجل. تبحث في جيوبك، تخرج علبة «الناسوار» وتضع قليلاً منها تحت لسانك. تذهب لتجلس مستندًا إلى إحدى هذه العواميد الخشبيّة التي ترفع سقف الحانوت المطليّ. يلهو ياسين، بصمت، بنواة السنجت. تمسكه من ذراعه وتقرّبه منك.

تريد أن تقول شيئًا لكن وقع خطوات عدّل رأيك.

اقترب رجل يرتدي ثيابًا عسكريّة.

ـ سلام، ميرزا قادر.

ـ وعليكم، حشمت خان.

اشترى الجنديّ علبة ثقاب وبدأ في محادثة البائع.

بالقرب منك، ينشغل حفيدك بالنمل الذي شدّته بقع «الناسوار» الخضراء في الخارج. بنواة السنجت، كان يدعك «الناسوار» والرّمل والنملة التي كانت تصارع داخل المزيج الأخضر.

استأذن الجنديّ من ميرزا قادر. مرّ من أمامك. بالنّواة، مسّد ياسين الرّمل في موقع الأثر الذي

تركته خطوات الجنديّ.

اختفت النملة. علقت النملة والناسوار بنعل الجنديّ الذي يبتعد.

ترك ميرزا قادر مكانه خلف الميزان. انسحب، إلى إحدى زوايا الدكّان وأدّى صلاة الظهر.

ها قد مرَّ عليك أسبوع لم تُصَلِّ فيه، لا في جامع، ولا في ركن حميم. ثيابك غير طاهرة للصلاة. منذ أسبوع وأنت ترتدي الثياب ذاتها، صبحًا ومساء. إنّ الله رحيم...

إن صلّيت أم لم تصلِّ، فالحقيقة أنّ الله لا يهتمّ بك. لو كان يستطيع أن يفكّر بك ولو للحظة، أن ينحني على حزنك... واحسرتاه، لقد تخلّى الله عن مخلوقاته. إذ لو أنّه يسهر عليها بهذا الشكل، لكنت أنت نفسك، وبالرّغم من كلّ ضعفك، قد حكمت ألف عالم! لا حول، يا داستاغوير! أنت تجذف! لا تدخل في تجربة إبليس! ملعون أنت!! لتشغلْ فكرك بأمر آخر! لكن بماذا؟ ألست جائعًا؟ إبصق مضغتك!

ـ يا رجل! ستُفني لسانك. ستُتْعِبُ كلّ أعضائك.

في الفترة الأخيرة، لا تأكل سوى «الناسوار».

تسمع صوت والدة مراد، تسمع العبارات التي كانت تردّدها كلّ يوم لحظة الجلوس إلى المائدة، وبخاصّة حين كان مراد في السّجن. كان «الناسوار» تحت لسانك بشكل دائم، تفعل كلّ شيء لتهرب من الطعام. تتسلّل إلى حديقة البيت الصغيرة، متحجّجًا بآخر أشعّة النّور وبالعشب السّيّئ الذي عليك اقتلاعه. هنا، تجلس على كعب الأزهار، تُسِرّ بحزنك إلى الأرض. يلعلع صوت زوجتك في الحديقة. تقول لك إنّه بعد موتك وحتى يوم الآخرة، سيكون فمك مليئًا بالتراب، وإنّك، أنت نفسك، ستتحوّل إلى غبار، لتنبت شتلة تبغ. تقول وأنت في الجحيم ستحترق داخل حجرة تبغ إلى الأبد!

لا زلنا بعيدين عن يوم الآخرة وها أنت تحترق. ماذا ستخشى إذًا من لهب الجحيم ومن مجمرة التبغ!

تبصق مضغة «الناسوار» في البعيد. تُخرج كسرة خبز من بقجتك الحمراء، تتقاسمها مع ياسين.

لا تستطيع أسنانك أن تمضغها. ليست هي

المشكلة، بل إنّ الخبز هو القاسي بعد أن مرّت عليه عدّة أيّام. بالضبط. إن كان لا يزال هناك شيء صالح، فهي أسنانك. المشكلة الحقيقيّة، أن ليس هناك خبز! لو كنت تملك الخيار على الأقلّ. الأسنان أم الخبز! هل سيكون ذلك الأمر بمثابة حرِّيَّة اختيار الإنسان!

تُخرجُ تفّاحة من البقجة. تعاتب ربّك مجدّدًا. تتوسّل إليه أن يهبط من عليائه. تبسط لفاعك «الغول - إي - سيب» كما لو كنت تدعوه لمشاركتك خبزك البائت. تريد أن تعرف ما يستطيع أن يلومك عليه بعد أن خصّك بمصيرٍ كهذا..

- يدّعي الجنديّ أنّ الرّوس أبادوا القرية.

يتدخل ميرزا قادر بينك وبين ربّك. تشكره لأنّه طرح عليك هذا السؤال، لأنّه جنّبك الدخول في حرب مع الله. تتوسّل الرحمة الإلهيّة وتوجّه كلامك إلى ميرزا قادر.

- قليل ما تقوله يا أخي، لم يوفّروا حياة واحدة.. أتساءل عن السبب الذي عاقبنا الله عليه.. لقد تحوّلت قريتنا إلى رماد.

ـ لماذا هاجموها؟
ـ تعرف جيّدًا يا صديقي، في هذه البلاد، إن تساءلت لماذا، عليك أن تبدأ بسؤال الأموات في قبورهم. لا أعرف حقًّا، لماذا؟ منذ فترة، جاءت زمرة من الخونة تابعة للحكومة، وخطفت الماشية. هرب نصف الشبّان، أمّا النصف الثاني فقد اختبأ، متحجّجين بتفتيش المنازل، قام رجال الميليشا بسرقة ونهب كلّ شيء. في منتصف اللّيل، جاء رجال من القرية المجاورة وذبحوا رجال ميليشيا النظام.. في الصباح، رحلوا مع الشبّان الذين اختفوا هربًا من الرايات الحُمر... في اليوم التالي جاء الرّوس وطوّقوا القرية. كنت في الطاحونة. فجأة سمعنا صوت انفجار. خرجت. لم أرَ سوى اللّهب والغبار. بدأت بالرّكض نحو البيت. لماذا لم تقتنلي شظيّة قبل أن أصل إلى منزلي! أيّ خطيئة ارتكبت ليحكم عليّ بالحياة، لأكون شاهدًا على...

يتشنّج حلقك. تهتاج الدموع في عينينك، كلاّ إنّها ليست دموعًا، إنّه حزنك الذي يذوب وينساب. دعه يسيل.

بين جدرانه الأربعة، يشبه صمت ميرزا قادر

صمت الصورة. كأنّه كان يشكّل جزءًا من اللّوحة التي وراء ظهره.

تُتابع:

- ركضت نحو المنزل فوق غيمة من اللّهب والدخان. على الطريق، رأيت والدة ياسين. كانت تركض عارية بالكامل... لم تكن تصرخ، بل تضحك. كأنّها مجنونة تركض في جميع الاتّجاهات. كانت في الحمّام حين سقطت القذيفة... انفجر الحمّام... ماتت بعض النساء، ودُفِن البعض الآخر وهنّ أحياء... لكن كنّتي.. لو فقدت عينيّ لحظتها كي لا أراها في عارها هذا. أردت التقاطها لكنّها اختفت في اللّهب. لا أعرف كيف وجدت المنزل. لم يبق منه شيء، لقد تحوّل إلى قبر لزوجتي، لابني الآخر، لزوجته وأطفاله.

حلقك على شفير الانفجار. تسيل دمعة. تذهب لاستقبالها على عينيك بذيل عمامتك. من ثمّ تتابع!

- لم يبق سوى هذا الحفيد على قيد الحياة، ولا يستطيع أن يسمعني. أشعر كأنّني أكلّم حجرًا. يحطّم ذلك قلبي.. لا يكفي الكلام يا أخي، إذا لم يسمعك أحد، إنّه لا يفيد بشيء، مثل

الدموع. . .

تعصر وجه ياسين على بطنك. يرفع الطفل عينيه نحوك. ينظر إليك ويقول:

ـ جدّي يبكي، عمّي مات، بيبي[1] رحلت. . . قادر مات، بوبو[2] ماتت!

منذ أسبوع، ما إن يراك تبكي، حتّى يردّد ياسين هذه العبارات. في كلّ مرّة، يروي ويقلّد مشهد القصف:

ـ القنبلة كانت قويّة جدًّا. أسكتت كلّ شيء. أخذت الدبّابات أصوات النّاس ورحلت. حتّى أنّها أخذت صوت جدّي. . لم يعد يستطيع جدّي الكلام، لم يعد يستطيع توبيخي. . .

يضحك الطفل ويبدأ بالجري باتّجاه تخشيبة الحارس. تناديه.

ـ اِرجع! إلى أين أنت ذاهب؟

سدى. دعه إذًا يتسلّى قليلاً.

---

(١) الجدّة.

(٢) الأمّ.

حتّى تلك اللّحظة، بقي ميرزا قادر صامتًا، لم يستطع إيجاد الكلمات كي يخفّف آلامك. بهدوء تمتم بشيء وقدّم لك تعازيه.

عاد ليتحدّث معك وهو يصقل كلّ كلمة:

ـ أيّها الأب الوقور، في السّاعة الراهنة، الأموات أسعد من الأحياء. ما العمل! الزمن صعب. فَقَدَ البشر كرامتهم. أصبحت السُّلطة إيمانهم، بدلاً من أنْ يكون إيمانهم هو السّلطة. لم يعد أحد يستحقّ أن يكون من البشر، لم يعد هناك بشر شجعان. من يتذكّر رستم[١] بعد. اليوم يقتل زهراب[٢] أباه، وعذرًا على كلامي، ينكح أمّه ـ لقد عاد العصر عصر أفاعي زهاق[٣]، أفاعٍ

(١)رستم، ابن زال، بطل الشاهنامة الأسطوري (كتاب الملوك). والشاهنامة قصيدة ملحميّة شهيرة، كتبها الشاعر الفارسيّ الكبير الفردوسي (القرن الحادي عشر)، وهي تروي مواجهة بين عشيرتين عدوّتين في فارس الشرقيّة والغربيّة، وهي المواجهات التي قتل فيها رستم ابنه زهراب الذي لم يكن يعلم بوجوده.

(٢)زهراب، ابن رستم، وُلِدَ من اتّحاده السرّيّ مع تامينا، أميرة طوران، وقد وجد نفسه خصم أبيه في تلك المعركة الشهيرة التي تواجهت فيها المملكتان وقد قتله والده، بشكل لا إراديّ.

(٣)زهاق، طاغية أسطوريّ في «كتاب الملوك»، أكّد قدرته بفضل أفعيين كانتا تتجوّلان معه على كتفيه وكانتا تتغذّيان، بمخاخ الشبّان في المملكة.

تتغذّى في عقول شبّاننا. . .

توقّف عن الكلام ليشعل سيجارة: أشار بإصبعه إلى الرسم الموجود على الحائط، ليكمل:

ـ على كلّ، لقد أصبح الشبّان أنفسهم زهاق الزمن الرّاهن. لقد تعاهدوا مع الشيطان وها هم يدفعون آباءهم إلى الهوّة.. ذات يوم ستقع رؤوسهم هناك.

تلتقي نظرته بنظرتك. عيناك مشدودتان إلى الباب. يبدو لك الحانوت غرفة واسعة، في زاويتها، يجلس عمّك، وبقربه «التشيلام»[1]. أنت في عُمر ياسين. تجلس عند قدميه. يقرأ الشاهنامة بصوت عالٍ، يتحدّث عن رستم، عن زهراب، عن تامينا. . . يتحدّث عن معركة رستم وزهراب. . عن الطلسم الذي أنقذ حياة رستم، عن موت زهراب. . . يبدأ أخوك الصغير بالبكاء، يغادر الغرفة، ويذهب ليضع رأسه فوق ركبتيّ والدتك، ينتحب:

ـ كلاّ، زهراب أقوى من رستم!

وتجيبه والدتك:

(١) النرجيلة.

ـ هذا صحيح يا بنيّ، زهراب أقوى من رستم.

أنت أيضًا تبكي لكنّك لا تغادر الغرفة. صامتًا، عيناك غارقتان بالدموع، تبقى جالسًا عند قدميّ عمّك، تريد أن تعرف ما إذا كان رستم يستطيع العراك بعد، بعد موت زهراب...

أخرجك سُعال ميرزا قادر من هروبك هذا إلى طفولتك.

عاد الحانوت صغيرًا جدًّا. من إطار الكوّة. خرج رأس ميرزا قادر. سألك:

ـ أأنت ذاهب إلى المنجم للعمل مع ابنك؟

ـ كلّا يا أخي، لأراه فقط.. لا يعرف شيئًا عن هذه المصيبة التي حلّت بعائلته. المرعب، أنّه عليّ أن أزفّ شيئًا مماثلاً لابنه، لا أعرف كيف سأتصرّف. إنّه ليس من النوع الذي يتحمّل بصمت ـ لتؤخذ حياته منه ولكن لا يمسّه أحد بشرفه! إذ سرعان ما يُرى أحمر...

ترفع يدك إلى جبهتك، تغلق عينيك وتتابع:

ـ ابني، ابني الوحيد سيصاب بالجنون بالتأكيد.. من الأفضل أن لا أقول شيئًا..

ـ إنّه رجل، يا والدي! عليك أن تخبره! عليه أن

يتقبّل الأمر. ذات يوم سيعرف الخبر. من المستحسن أن يكون عبرك. أن تكون قربه، أن تشاركه ألمه. لا تتركه وحده! أفهمه أنّ الحياة هي كذلك، فإنّه ليس الوحيد في هذا العالم. بأن له، ابنه وأنت. عليكما أن تتعاضدا. . هذه المصائب هي تصيب الجميع، ليس للحرب قلب.

يقرّب ميرزا قادر رأسه من الباب قائلاً بصوت خفيض:

ـ . . . إنّ قانون الحرب هو قانون التضحية. وفي التضحية، إمّا تكون الدماء في عنقك وإمّا على يديك.

مجتاحًا بإحساس عدم القدرة على شيء، تسأل بشكل آليّ:

ـ لماذا؟

يرمي ميرزا قادر سيجارته إلى البعيد. يتابع بصوت خفيض:

ـ يا أخي، الحرب والتضحية تتبعان المنطق ذاته. لا تفسير لذلك. المهمّ، لا السبب ولا النتيجة، بل العمل بحدّ ذاته.

يسكت، يبحث عن تأثير كلماته في عينيك. تهزّ

رأسك. كما لو أنّك فهمت، في قرارة نفسك، تسأل نفسك عمّا يمكن له أن يكون فعلاً منطق الحرب. كلّ هذا جميل لكنّه لا يحمل العلاج لا لحزنك ولا لحزن ابنك مراد، إنّه ليس من النوع الذي يفلسف أو يفكّر بمنطق الحرب وقوانينه. بالنّسبة إليه، الدم يستدعي الدم. سينتقم حتّى لو كلّف ذلك حياته. إنّه الحلّ الوحيد! من ثمّ، ليس أمامه إلاّ أن يحمل الدماء على يديه.

ـ بابا، أين أنت؟ سيجعلني حفيدك مجنونًا!!

جعلك صراخ الحارس تنطّ. تسرع الخطى نحو التخشيبة صارخًا:

ـ لقد جئت! لقد جئت!.

ترى ياسين متمركزًا أمام التخشيبة. يرشقها بالحصى. كان الحارس قد احتمى في الخلف وهو يهدر من الغضب. تصل قرب ياسين، تصفعه على رقبته بعنف وتأخذ الحصى من يديه. يخرج الحارس، وهو يستشيط غضبًا من ملجئه:

ـ لقد جُنَّ حفيدُك! بدأ يرشق الأحجار على المركز. طلبت منه مرارًا أن يتوقّف! هل هو مخبول أم ماذا...؟

ـ لتقبل اعتذاري يا أخي، هذا الطفل أصمّ لم يعد يسمع...

تقود ياسين نحو الحانوت. يخرج ميرزا قادر ويتوجّه، وهو يضحك، نحو الحارس.

تعود مكانك لتجلس إلى العمود الخشبيّ. وتحتضن رأس ياسين.

ياسين لا يبكي. يبدو حائرًا كالعادة.

يسأل:

ـ هل جاءت الدبّابات إلى هُنا أيضًا؟

ـ وما أدراني أنا. إبقَ هادئًا!

تسكتان. تعرفان جيّدًا أنّ هذه الأسئلة ـ الأجوبة لا تنفع في شيء. ومع ذلك يتابع ياسين:

ـ بالتأكيد جاءت. فقد الرّجل في الحانوت صوته، الحارس أيضًا فقد صوته... جدّي، هل جاء الرّوس لأخذ أصوات الجميع؟ ماذا يفعلون بكلّ هذه الأصوات؟ لماذا تركتهم يأخذون صوتك؟ لو لم تفعل، هل كانوا قتلوك؟ بيبي، لم تعطهم صوتها، ها هي ميتة. لو كانت هنا، لروت لي قصّة «بابا خرقش»(١). كلّا، لو كانت هنا، لما

(١) حكاية فارسيّة قريبة من حكاية «عقلة الإصبع».

كانت تملك صوتًا. . .

يسكت هنيهة ويعود ليتابع:

ـ جدّي، هل لديّ صوت، أنا؟

تجيب رغمًا عنك:

ـ أجل.

يعيد طرح سؤاله، تنظر إليه وتشير له برأسك إيجابًا:

ـ لماذا أنا إذًا على قيد الحياة؟

يضع وجهه تحت سترتك. كما لو أنّه كان يحاول لصق أذنه على صدرك كي يسمع ضجّة ما تنبعث من الدّاخل. لا يسمع شيئًا. يغلق عينيه. كلّ شيء صامت داخل جسده. بلا أدنى ريبة. لو كنت فقط تستطيع أن تدخل إلى قلبه وتروي له قصّة «بابا خرقش».

يصل إلى أذنيك صوت زوجتك المرتجف تقول:

ـ كان يا ما كان، «بابا خرقش». . .

ها أنتَ عار مثل دودة واقفة على غصن شجرة العُنّاب الكثيفة. صعدتَ كي تهزّ الأغصان لياسين.

على كعب الشجرة، يجمع ياسين الثمار. بشكل لا إراديّ، تبدأ بالتبول. يبتعد ياسين عن الشجرة باكيًا ويذهب ليجلس على كعب شجرة أخرى. يفرغ البقجة من التفّاح ويضع السنجت بدلاً منها. يعقد القماشة. يحفر الأرض بيديه الصغيرتين ويكتشف بابًا على سطح الأرض، مقفلاً بقفل كبير. يفتح القفل بنواة حبّة سنجت ويتسلّل إلى تحت الأرض.

تصرخ:

- ياسين، إلى أين أنت ذاهب؟ اِنتظرْني، ها قد وصلت!

لا يسمع ياسين شيئًا، يذهب ياسين وينغلق الباب خلفه. تحاول الهبوط من على الشجرة، لكنّها لا تنفكّ عن التضخّم. تسقط من دون أن تبلغ الأرض أبدًا...

تنفتح عيناك. يخفق قلبك في صدرك. لا يزال ياسين متكوّرًا في حضنك باطمئنان. ميرزا قادر يثرثر مع الحارس قرب التخشيبة. تحاول جاهدًا أن تبقي عينيك مفتوحتين تحدّقان. لا تريد أن تخمد. لا تريد أن تحلم أيضًا، إلاّ أنَّ جفنيك ثقيلان جدًّا لدرجة أنّ إرادتك منعدمة.

تسمع صوت امرأة:

ـ ياسين! ياسين! ياسين!

إنّه صوت زينب، أمّ ياسين. لا يزال صدى صوتها يرنّ في أذنيك. يبدو كأنّ الصوت ينبعث من الأعماق. تتقدّم نحو الباب الذي يقود إلى تحت الأرض. . إنّه مغلق. تنادي زينب. يرنّ صوتك في الجانب الآخر من الباب. ينفتح، لتجد نفسك أمام فاتح حارس الحاجز. يستقبلكم بابتسامة على شفتيه ويقول:

ـ أهلاً وسهلاً. ادخلْ، إنّني أنتظرك.

تغور داخل الأرض. ينغلق الباب خلفك، في الخارج تلعلع ضحكة فاتح. يصرخ:

ـ يقتلك الشوق للرّحيل، أليس كذلك! لم تتوقّف عن مضايقتي منذ الصباح. حسنًا، سفرًا ميمونًا!

الجوّ بارد ورطب تحت الأرض. تتنشّق رائحة طين. ثمّة حديقة كبيرة، جرداء بالكامل، بلا زهور ولا خضرة، ثمّة دروب ضيّقة موحلة، تسير بين أشجار البلّوط التي لا أوراق لها.

تجدُ زينب تحت شجرة، عارية بجانب بنت صغيرة. تناديها. لا يبدو أنّ صوتك وصلها. تأخذُ زينب البنت بين ذراعيها وتلفّها بوشاح «الغول ـ إي ـ سيب» تقبّلها على خدّها وتبتعد. كان ياسين جاثمًا

على أحد أغصان شجرة العُنّاب، عاريًا بدوره. يشرح لك قائلاً إنّ البنت هي أخته، بأنّه أعطى والدته وشاح زوجتك «الغول ـ إي ـ سيب» الذي كنت تستعمله كبقجة، كي تستطيع أن تحمي أخته من البرد. منذ متى أصبح ياسين رؤوفًا؟ منذ أيّام قليلة، كان قد مضى على حمل زينب أربعة أشهر! هل أنجبت؟ هل أصبحت ابنتها كبيرة إلى هذا الحدّ؟!

تنظر إلى ياسين، يرتعش من البرد. يحاول الهبوط من الشجرة لكنّه لا ينجح في ذلك. لا تتوقّف الشجرة عن التضخّم، ينتحب ياسين.

تقع ندف الثلج على جسمك. تتغطّى الدروب بالثلج.

تبدّل زينب مكانها لتتخفّى وراء الأشجار. تركض. تعود وتناديها. سدى. تذهب عارية فوق الثلوج والبنت بين ذراعيها.

تضحك. لا تترك خطواتها أثرًا على الثلج، بل إنّها ترنّ في الحديقة. ينادي ياسين أمّه. تغيّر صوته. صار له صوت أمّه. صوت حادّ. تراقب جسده. إنّه جسد بنت، مكان عضوه الصغير، صار هناك فرج فتاة. ارتعبتَ. بشكل لا إراديّ ناديت

مُراد. بقي صوتك مخنوقًا في حلقك. رنّ في صدرك. صار لك صوت ياسين، صوته النحيف، الغارق بالبكاء، صوته المليء بالتعجّب والألم والاستفهام:

ـ مُراد، مُراد! مُراد؟

تشعر بيدين على كتفيك. تلتفت. تتجمّد في مكانك تقريبًا. إنّه ميرزا قادر الذي يعلن لك بابتسامته الأبديّة:

ـ لم تعد أفاعي زهاق تكتفي بعقول شبابنا بل تطالب أيضًا بذنَبهم!

أصبحت الآن جامدًا بالكامل. تريد أن تتحرّر من قبضة ميرزا قادر الثقيلة، لكنّك لا تستطيع الحراك.

تفتح عينيك. جسدك غارق بالعرق. يخفق قلبك ببطء. مائة ضربة في السّاعة. ترتجف يداك.

تلتقي بعينين عطوفتين:

ـ إنهض يا والدي، السيّارة هنا.

سيّارة؟ لماذا السيّارة؟ أين تريد أن تذهب؟ أين أنت؟

ـ يا والدي، هناك سيّارة ذاهبة إلى المنجم.

تتعرّف إلى صوت ميرزا قادر. تعود إلى رشدك. ينام ياسمين بطمأنينة بين ذراعيك. تتهيّأ لإيقاظه.

يقول ميرزا قادر:

- يا والدي، دعْ حفيدك هنا. اِذهب وحدك أوّلاً. تكلّمْ مع ابنك على انفراد، ومن ثمّ عُد إلى هنا. ليس هناك مكان في المنجم كي تناما أنتما الاثنين. سيغتمّ ابنك أكثر إن رأى ابنه على هذه الحالة.

ليكن، تخيّل ياسين أمام والده. سيرمي نفسه بين ذراعيه، وحتّى قبل أن تتفوّه بأيّ شيء، سيبدأ بالصراخ: «عمّي مات، بوبو ماتت، قادر مات، بيبي ماتت. جدّي يبكي...» سيتوقّف قلب مراد بالكامل حين يسمع ذلك. كيف تريد إفهام ياسين بأنّ عليه أن يلتزم الصّمت.

تقْبَلُ اقتراح ميرزا قادر. لكنّ شعورًا بالمرارة يجتاحك. كيف ستترك حفيدك الوحيد عند شخص مجهول؟ بالكاد تعرف ميرزا قادر منذ ساعتين! ماذا سيقول مراد؟

- بابا، هل ستأتي أم لا؟

إنّه صوت الحارس. تبقى مسمّرًا أمام ميرزا قادر، صامتًا، ونظراتك طافحة بالاستفهامات. ما العمل؟ ياسين أم مراد؟ داستاغوير، ليس الوقت

وقت تفكير! لتعهد ياسين إلى الله واجرِ إلى عند مراد.

ـ بابا، ستغادر السيّارة.
ـ سأدع ياسين بين يديك وبين يديّ الله.

تطرد نظرة ميرزا قادر وابتسامته وساوسك الأخيرة.

تلتقط ألبقجة الحمراء وتتوجّه نحو التخشيبة. ثمَّة شاحنة ضخمة تنتظر. تحيّي السّائق وتصعد. الحارس واقف أمام تخشيبته خائر القوى، مسترخيًا بالكامل، مرتديًا بزّة عسكريّة، وسيجارته الأبديّة، النصف المحترقة، لا تزال في زاوية فمه. يرفع الحاجز الذي يقفل الطريق إلى المنجم ويشير إلى السّائق:

ـ هيّا إلى المسير!

يتبادل السائق بعض الكلمات معك. يزعق حارس الحاجز:

ـ شاه مارد! ألا ترى؟

يشير شاه مارد بيده معتذرًا وينطلق.

تدخل الشاحنة بسرعة قصوى إلى منطقة المنجم. في المرآة العاكسة، ترى الحارس

وتخشيبته يختفيان داخل غيمة من الغبار. لا تعرف لماذا يترك عندك هذا المشهد نوعًا من المتعة! هيّا، الحارس ليس مرعبًا إلى هذا الحدّ. كلّ ما في الأمر، أنّه يشعر بالأسى الكبير. سامحني يا أخي لأنّني ضايقتك. ليرحم الله والدك.

يستشيط قلبك حماسة. اللقاء صار قريبًا. إنّ مراد على الطرف الآخر من هذا الشارع. لتتمجّدْ هذه الطريق التي سلكها مُراد عدّة مرّات. ترغب في أن تطلب من شاه مارد أن يوقف الشاحنة، كي تتمكّن من النزول وتسير فوق هذه الأرض، أمام هذه الأحجار، هذا العلّيق الذي لثم ذات يوم قدميّ ابنك. ليتك تستطيع أن لا تكون سوى غبار قدميّ مراد!

ـ هل انتظرت طويلاً؟

يخرجك سؤال شاه مارد من غبطتك.

ـ منذ التاسعة صباحًا.

عاد الصمت ليتموضع بينكما.

يبدو شاه مارد شابًّا في الثلاثين من عُمره تقريبًا، ربّما أقلّ من ذلك. بشرته مبرنزة قليلاً، سحنته ترابيّة

اللّون والتجاعيد التي تخدّد وجهه، تجعله أكبر سنًّا. كانت طاقيّته «الاستراكان»[1] القديمة تغطّي شعره المزيّت.

شاربان أسودان يخفيان شفته العليا وأسنانه المصفرّة. رأسه مقذوف إلى الأمام. عيناه المحاطتان بازرقاق، تتحرّكان بلا توقّف. تتحرّك نظراته في جميع الاتّجاهات.

ثمَّة نضف سيجارة موضوعة على أذنه اليمنى. يصل عطره إلى خياشيمك. في البداية اعتقدت أنّك تشمّ رائحة فحم، رائحة المنجم، رائحة مراد، حيث أنّ اللقاء القريب سيشعل نظرتك. ستقبّل جبينه، أو بالأحرى قدميه. ستقبّل عينيه، يديه. مثل ابن يجد أباه. نعم، أنت حقًّا ابن مُراد وسيعصرك بين ذراعيه، سيعزّيك. سيأخذ يديك المرتجفتين بين يديه ويقول لك:

ـ داستاغوير، يا بنيّ!

لو كنت تستطيع فقط أن تكون ابنه، ابنه ياسين. أصمّ مثل ياسين. ستشاهد مراد ولن تسمعه يتكلّم. لن تسمعه وهو يقول: «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

ـ هل ستعمل في المنجم؟

---

(١) فرو الحملان الصغيرة أو نسيج يشبهه.

ـ كلاّ، ذاهب لأرى ابني.

تتوه نظرتك في تموّجات الوادي. تلتقط أنفاسك وتتابع:

ـ أنا ذاهب لغرز خنجر في قلب ابني!

ينظر إليك شاه مارد بذعر، يضحك ويقول:

ـ الله أكبر. من كان يظنّ أنّني أنقل معي فارسًا!!

من دون أن تغادر الوادي وحجارته السوداء، غباره وعلّيقه، تتابع:

ـ ليس هذا يا أخي. في داخلي حزن عميق والحزن يتحوّل أحيانًا إلى طعنة.

ـ إنّك تتحدّث مثل ميرزا قادر.

ـ أنت أيضًا، تعرف ميرزا قادر؟

ـ من لا يعرفه. إنّه تقريبًا معلّمنا كلّنا!

ـ إنّه رجل عطوف. لم أكن أعرفه ولكنّي أمضيت لتوّي ساعتين برفقته. لقد أسرّني. عباراته دائمًا صائبة. إنّه يوحي بالطمأنينة بسرعة. تستطيع أن تتحدّث معه بصراحة، إنّ الرّجال الذين مثل ميرزا قادر أصبحوا نادرين في أيّامنا هذه. هل تعرف من أين هو؟

يبحث شاه مارد عن عقب السيجارة خلف أذنه،

يضعه بين شفتيه المشقّقتين ويشعله، يمجّ ملءَ رئتيه ويحتفظ بالدخان داخلهما. يقول:

ـ إنّه من كابول، من منطقة شوربازار. يدير هذا الحانوت من زمن قصير. لا يُحبّ أن يتحدّث عن نفسه كثيرًا. ما دام لا يثق بأحد بعد، يبقى سريًا. توجّب عليّ سنة كاملة كي أعرف من أين أتى وما الذي قاده إلى هنا.

سكت شاه مارد بينما كنت ترغب في معرفة المزيد عن ميرزا قادر. هذا أمر طبيعيّ، إذ إنّك أوكلت إليه لتوّك حفيدك، ابن مراد.

يتابع شاه مارد:

ـ كان حانوته يقع في شوربازار. كلّ مساء، كان هذا البائع يتحوّل إلى شاعر غنائيّ، جامعًا حوله حشدًا كبيرًا. كان يتمتّع باحترام كبير. حتّى اليوم الذي جُنِّد فيه ابنه الشاب. بعد عام، حين انتهى من خدمته العسكريّة، كان برتبة ملازم. ملازم ألعوبة! كان قد أُرسل إلى روسيا فلم يعجب ذلك ميرزا قادر. حين أراد أن يقف في وجه مهنة ابنه، هرب هذا الأخير إذ كان استذوق البزّة العسكريّة والمال والسّلاح. تبرّأ منه ميرزا قادر فقتل الغمّ زوجته. غادر ميرزا كابول على عجل تاركًا

حانوته ومنزله. ذهب وعمل لسنتين في منجم الفحم. ومع ما ادّخره، فتح هذا الحانوت. يجلس من الصباح وحتّى المساء في دكّانه، يكتب أو يقرأ. ليس لديه أيّ حساب ليقدّمه إلى أحد. إن أعجبته، يحترمك كسيّده. إن لم يعجبه شكلك، من الأفضل حتّى أن يتجنّب كلبك المرور من هنا... أحيانًا أبقى حتّى الفجر في حانوته وأنا أستمع إليه يقرأ الحكايات والقصائد. إنّه يحفظ الشاهنامة عن ظهر قلب.

تطنّ كلمات ميرزا قادر في أذنيك المتعبتين. كلماته حول رستم، زهراب، وحول زهراب اليوم.. وتشطّ أفكارك نحو زهرابك أنت. كلاّ! مرادك ليس واحدًا من زهاريب[1] اليوم الذين يقتلون آباءهم. لكنّك أنت... أنت رستم! وتذهب إلى غرز خنجر الحزن في قلب ابنك!

كلاّ، لا تريد أن تكون «رستمًا»، لست سوى داستاغوير، أب مسكين مجهول، لا بطلاً يفترسه النَّدم. مراد ابنك لا شهيدًا بطلاً. دَعْ رستم في مهد الكلمات؛ دع زهراب في تابوته الورقيّ. عُد إلى

(١) للضرورة، جمع زهراب.

مُرادك، إلى اللّحظة التي يعصر فيها يديك المرتجفتين بين يديه ولتغطس نظرتك المنهكة في عينيه الرطبتين. تناشد الإمام عليًّا كي يساعدك على إيجاد العبارات المناسبة:

ـ مراد، ضحَّتْ أمّك بحياتها من أجلك...

كلاّ، لماذا تبدأ بالحديث عن أمّه؟

ـ مراد.. أخوك...

ـ لماذا أخوه؟

إذًا ماذا، بماذا يجب أنْ أبدأ؟

ـ مراد، يا بنيّ، لقد دُمّر المنزل...

ـ لماذا؟

ـ القذائف...

ـ هل جُرح أحد؟

سكوت.

ـ أين ياسين؟

ـ إنّه على قيد الحياة.

ـ أين زينب!

ـ زينب؟ زينب، إنّها.. في القرية.

ـ ووالدتي؟

هنا عليك أن تخبره:

ـ ضحّت والدتك بحياتها من أجلك...

ويبكي مراد.

- يا بني، إنّك رجل! هذه الأمور لا بدّ أن تصيب الرّجال في أحد الأيّام... كانت والدتك. وكانت زوجتي. لقد رحلت. حين يأتي الموت، لا يهمّه أن يعرف إن كان الشخص أمًّا أو زوجةً.. يا بني، لقد مرّ الموت في قريتنا.

من ثمّ تخبره عن زوجته، تخبره عن أخيه، تقول له إنّ ياسين على قيد الحياة، وإنّك أوكلت به ميرزا قادر لأنّه خائر القوى؛ كان نائمًا.. لا تقل شيئًا عن حالته.

أنهى ضجيج شاحنة أخرى، وصلت قبالتك، حديثك مع مُراد. تقاطعت معكم بسرعة كبيرة، ارتفع الغبار. اختفت تموّجات الوادي. خفّف شاه مارد سيره. يسألك:

- هل ستقضي اللّيل عند ابنك؟
- لا أعرف إن كان لديه مكان كي يأويني.
- سيتدبّر أمره.
- على أيّ حال، عليّ أن أعود. لقد تركت حفيدي عند ميرزا قادر.
- لماذا لم تصطحبه معك؟
- تملّكني الخوف؟

ـ الخوف من ماذا؟
ـ ما نفع أن تغتمّ بكلّ هذه القصّة؟
ـ لا تهتمّ بأمري، تحدّث!
ـ سأروي لك.

سكت شاه مارد. ربّما لا يجرؤ على الإلحاح. ربّما تخيّل بأنّك لا ترغب في الكلام. هل فعلاً ليس لديك الرّغبة في ذلك؟ منذ أن دُمّرت القرية، هل وجدت الفرصة فعلاً كي تدع دموعك تنساب؟ من قاسمته الكرب؟ مع من تقاسمت الحزن؟ كلّ واحد كان منهمكًا بأمواته. كان أخوك جالسًا أمام كومة من الدمار. يترصّد بلا ملل عويلاً مقرّبًا. ابن عمّك، وهو يبكي، كان يبحث سدى بين الأنقاض عن قطعة قماش، عن ذيل ثوب، كي يكفّن أمواته. صهرك، المستلقي جانب بقرة نافقة في الإسطبل المنهار، كان يرضع ضرعها الصلب ويقهقه ضاحكًا.

أنت على الأقلّ، كان عندك ياسين. صحيح أنّه لم يكن يستطيع سماع بكائك، لكنّه كان شاهدًا على تعاستك. على كلّ، هل أقلقك حزن الآخرين؟ كنت تبحث عن الفرار من الجميع. مثل كاسر في

حقل أنقاض، أو بالأحرى في إحدى المقابر. لولا مراد، لولا ياسين، لما كنت غادرت هذا المكان أبدًا. شكرًا يا إلهي، مراد موجود، ياسين موجود. لولا ذلك لكنتَ بقيت هناك لغاية أن تسقط في الغبار.

داستاغوير، أين تهت من جديد؟ يريد شاه مارد أن يعرف لماذا ياسين لم يرافقك. لقد ذهبت بعيدًا، بعيدًا جدًا... في جحيم أفكارك. قل له شيئًا! كلِّمْه عن أمواتك! حاولْ ذلك. إنّهم يستحقّون صلاة ما! لغاية اليوم، مَنْ غير ميرزا قادر قدّم إليك تعازيه؟ من صلّى لراحة أرواحهم؟ لتقبلْ أن يتحمّل شخص آخر حصّته من ألمك ويصلّي من أجل أمواتك. قلْ شيئًا!

وها أنت تتكلّم! تتحدّث عن خراب قريتك. عن زوجتك، عن ابنك، عن كنّتك، عن ياسين...

وتبكي. يسكت شاه مارد. إنّه أخرس، ترفرف عيناه بيأس بحثًا عن كلمة. يجدها. يتلو صلاة، يقدّم إليك تعازيه ويعود ليغرق في الصمت.

تتابع. تتحدّث عن مُراد. عن مُراد الذي لا تعرف كيف ستزفّ إليه خبر وفاة والدته وزوجته وأخيه. لا يزال شاه مارد صامتًا. ماذا تريد أن يقول

لك؟ كلّ غضبه أصبح بين قدميه. ساقاه ثقيلتان. تشهد على ذلك سرعة الشاحنة. تسكت بدورك أنت أيضًا.

تسبّب لك قفزات الشاحنة وهديرها الرّتيب الغثيان. ترغب في أن تغلق عينيك للحظة.

تنشقّ الأرض عن «جيب» عسكريَّة خلف الشاحنة. يتجاوزها وينثر غبار الوادي القاتم.

.

في غيمة قاتمة من الغُبار، تشاهد زوجة مراد، راكضة عارية أمام الشاحنة. شعرها المبلّل يطير في الهواء. شاقًّا الغبار. كما لو أنّ شعرها يُكنّس الهواء. صدرها الأبيض يرقص بأناقة فوق جذعها. ثمّة نقاط مياه أشبه بلآلئ الندى تسقط من جسمها إلى الأرض.

تناديها:

ـ زينب! ابتعدي عن الشاحنة!

يبقى صوتك أسير الشاحنة. لا يصل صوتك إلى الخارج. إنّه يرنّ في داخلها. لا تتوقّف. ترغب في إنزال زجاج النافذة وترك صوتك يطير نحو زينب. لكن ليس لك القوّة على الحراك. تشعر بثقل. تزن البقجة الحمراء بثقلها على ركبتيك. تريد أن

ترفعها، أن تضعها إلى جانبك. لكن ليس لك القوّة كي ترفعها. تحلّ ربطتها. التفّاحات في الداخل، أصبحت سوداء، متفحّمة. . . تفّاحات متفحّمة، تضحك في سرّك. ضحكة مريرة. ترغب في أن تسأل شاه مارد رأيه عن سرّ التفّاحات المتفحّمة. بدلاً من شاه مارد، تجد مُراد. لا تستطيع أن تمنع نفسك عن الصراخ. لا تعرف إن كان ذلك بسبب الرّعب أو المفاجأة أو حتى الفرح.

لا ينظر مراد إليك. عيناه متّجهتان إلى الطريق، نحو زينب. تصرخ مجدّدًا. لا يسمع مراد. ربّما أصبح هو أيضًا أصمّ بدوره، أصمّ مثل ياسين.

لا تزال زينب تركض أمام الشاحنة. يلتصق الغبار ببطء على بشرتها البيضاء والرّطبة. غلالة من الغبار الأسود تغطّي جسدها. لم تعد عارية.

تنتشل قفزات الشاحنة زينب من نظرك. اختفت زينب، وعاد الطريق من جديد، ليغرق في الغبار القاتم.

تتنشّق بعمق. تلقي نظرة سريعة على شاه مارد. مُراد ليس موجودًا هنا، ليتمجّد الله. خرجت من حلمك. تنظر بصمت حولك. بقجتك موضوعة

إلى جانبك. سقطت منها تفّاحة وتدحرجت على المقعد.

تنظر بقلق إلى الطريق. زينب ليست هنا. لقد هرعت بجسدها العاري إلى داخل اللّهب. احترقت وهي حيّة. احترقت وهي عارية، وغادرت هذا العالم وهي عارية. احترقت تحت نظرك وغادرت العالم هذا. كيف ستروي ذلك كلّه لمراد. أعليك أن تخبره؟ كلاّ. زينب ماتت. هي أيضًا. نقطة على السطر. ماتت مثل الآخرين؛ في البيت، تحت القنابل. لقد ذهبت إلى الجنّة. نحن من يحترق بنار جهنّم. الأموات أسعد من الأحياء.

أيّ كلام جميل تعلّمته يا داستاغوير! بيد أنّ كلّ هذا الكلام لا فائدة ترتجى منه. مراد ليس من النوع الذي يتحمّل والذي يجلس في زاوية يبكي. مراد رجل. إنّه مراد داستاغوير. إنّه جبل من شجاعة، أرض فخر. يشتعل عند أدنى شيء يصيب شرفه. هو إذًا، إمّا يشعل النّار وإمّا يشتعل. لن يمرّ بسلام موت والدته وزوجته وأخيه. سينتقم. عليه أن ينتقم.

ممّن؟ ماذا يستطيع أن يفعل وحده! سيُقْتل

بدوره. إنّك تهذي يا داستاغوير!! لقد صعدت الدماء إلى رأسك! أأصبحت مجنونًا؟

لم يتبقَّ لديك سوى ابن واحد وتريد أن تضحّي به؟ لماذا؟ لكي تشتري حياة زوجتك وابنك الآخر؟ لتبتلعْ غضبك يا داستاغوير! دعْ مراد بسلام! دعه يحيا! ليُقطعْ لساني! لآكل الغبار! مراد، نم بسلام.

يمضي وقت قبل أن تجد علبة «الناسوار» في قعر جيبك، تسأل شاه مارد إن كان يريد منه قليلاً، وتضع له مضغة في راحة يده. أنت صامت. تتابع نظرتك مرور الأحجار والعلّيق السريع. لست أنت من يمرّ أمامها، بل هي التي تمرّ. أنت، لا تتحرّك. إنّها الحياة التي تمرّ. لقد حُكم عليك أن تكون موجودًا لترى مرور الحياة، لترى زوجتك وأطفالك يموتون.

ترتجف يداك. يتهاوى قلبك. غلالة سوداء تسقط على عينيك. تخفض زجاج الشاحنة كي تنتعش. ما من هواء منعش. الهواء ثقيل، كثيف. لونه مائل إلى القتامة. ليس نظرك الذي تحجّب بل إنّه الهواء الذي أعتم.

ـ داستاغوير، ماذا فعلت بمنديلي «الغول ـ إي ـ

سيب».

إنّها والدة مراد. ترى زوجتك تركض على حافّة السكّين على إيقاع الشاحنة. تفكّ عقدة البقجة وتترك التفّاحات المتكلّسة تسقط. تُفلتُ المنديل «الغول ـ إي ـ سيب» من النافذة. تطوف القماشة في الهواء. تتّجه والدة مراد، وهي ترقص، نحو منديلها.

ـ ها قد وصلنا.

عند سماع رنّة صوت شاه مارد. يتشظّى وجه والدة مُراد على مرآة عينيك.

تفتح عينين غارقتين بالدّموع. المنجم قريب جدًّا. مراد قريب جدًّا. ينقبض صدرك. يتمدّد صدرك، تتقلّص شرايينك، يتخثّر دمك. . لسانك مثل قطعة خشب، قطعة خشب نصف محترقة، جمرة، جمرة صامتة. حلقك جافّ. ما من نقطة لعاب في فمك. ماء! ماء! تبلع مضغة «الناسوار». رائحة رماد تجتاح خياشيمك. تتنفّس بعمق. تظنّ أنّك تنشّقت رائحة مراد. تمتصّ الرّائحة ملء رئتيك، تملأ بها صدرك. لم تلاحظ مرّة أنّ صدرك صغير جدًّا وأنّ قلبك كبير، كبير مثل تعاستك.

ـ يخفّف شاه مارد سيره، يستدير إلى اليسار. تصل الشاحنة إلى أمام مدخل المنجم. تتوقّفان. يخرج حارس من كوخ خشبيّ، مماثل لذاك الموجود على الطرف الآخر من الطريق. يطلب أوراق الشاحنة ويتبادل بضع كلمات مع شاه مارد.

تبقى جامدًا وصامتًا. لا تصدر عنك أيّ حركة. على كلّ، لا تملك القوّة على الحراك. تنفّسك أسير صدرك. لست سوى هيكل فارغ. نظرتك الواهنة تمرّ عبر قضبان باب المنجم المعدنيّ الكبير. تشعر أنّ مراد ينتظرك خلف هذا الباب. مراد لا تسأل داستاغوير، عن سبب زيارته.

عبرت الشاحنة ببطء مركز الحراسة ودخلت إلى قلب المنجم. على كعب هضبة كبيرة اصطفّت بعض البيوت الصغير المكعّبة المصنوعة من الباطون، من يعرف في أيّ منها يوجد مراد؟ ثمّة رجال ذوو وجوه قرمزيّة، خوذاتهم على رؤوسهم، ينحدرون على الهضبة. بينما يتسلّقها آخرون. لا تشاهد مراد. تتّجه الشاحنة نحو المنازل الصغيرة الباطونيّة وتتوقّف أمام أحدها. يدعوك شاه مارد إلى

النزول هنا ويطلب منك أن تتحدّث مع رئيس العمّال كي تجد ابنك.

للحظة، لم يصدر عنك أيّ ردّة فعل. لا تملك يدك القوّة كي تفتح باب الشاحنة. أنت مثل طفل لا يريد الافتراق عن والده. تسأل ببراءة:

ـ هل ابني هنا؟

ـ بالتأكيد، لكن علينا أن نعرف أين؟ يجب أن تسأل رئيس العمّال.

ـ أين أجده؟

يشير شاه مارد بإصبعه إلى مبنى يقع إلى يمين الشاحنة.

يدك المرتجفة والميتة بالكاد تدفع باب الشاحنة. تضع قدمًا على الأرض. تنهار ساقاك. ليس لهما القدرة على حملك، بالرّغم من أنّ جسدك لا يزن شيئًا. إنّه وزن الهواء الذي تحسّه على جسدك. الهواء هنا كثيف، ثقيل.

تضع يدك على خاصرتك. يمدّ إليك شاه مارد بالبقجة الحمراء من النافذة ويقول لك:

ـ بابا، سأعود إلى المدينة نحو الساعة الخامسة أو السادسة. إن أردت الذهاب، انتظرني بالقرب من المدخل.

ليباركك الله. تحتفظ بكلماتك لنفسك وتهزّ برأسك فقط. لا يملك لسانك القدرة على التحرّك. الحقيقة، أنّ الكلمات ثقيلة جدًّا مثل الهواء...

تقلع الشاحنة. تبقى مسمّرًا مكانك مثل غيمة من غبار.

يمرّ عمّال ذوو وجوه سوداء أمامك. مراد؟ كلاّ، ليس بينهم. هيّا، اذهبْ لسؤال رئيس العمّال كي تجد ابنك.

ترغب في القيام بخطوة. لا تزال ساقاك ضعيفتين، جامدتين. كأنّهما غارزتان في قعر الأرض، حتّى قلبها المتأجّج، حتّى أتونها.. قدماك في النّار. لا تتحرّك، تتنفّس مجدّدًا! اِسْتَعِدْ لهاثك! حرِّكْ قدميك! تستطيع المسير. إذًا ماذا تنتظر كي تذهب إليه؟

تصل إلى أمام سكن رئيس العمّال. تتوقّف أمام الباب. باب ضخم. كأنّه مدخل حصن. ماذا يمكن له أن يوجد في الجهة الأخرى! ربّما نفق كبير، طويل، عميق، ينغرز في قلب الأرض، لأتونها.

تضع يدك على المقبض. إنّه يستعر نارًا.

إلى أين أنت ذاهب يا داستاغوير؟ أترغب في

غرز خنجر في قلب ابنك الذي تبقّى لك؟ ألا تستطيع إذًا أن تحتفظ بألمك لنفسك! دعه وشأنه! سيعرف الأمر ذات يوم. من الأفضل أن يعرفه عن طريق شخص آخر. وأنت، ما عليك القيام به؟ أنت تذهب وتختفي من حياته؟ كلاّ. ماذا إذًا؟ اليوم، لا تملك الشجاعة لتخبره، أنت منهك، قم بنصف استدارة! ستعود غدًا! غدًا؟ لكن غدًا ستستعاد القصّة ذاتها، اليأس ذاته. إذًا اِطرق الباب! يداك ثقيلتان. تسير بضع خطوات كي تبتعد.

ماذا تفعل يا داستاغوير؟ إلى أين أنت راحل؟ ألستَ جديرًا بأن تقرّر؟ لا تُهمل مراد. كن أبًا جديرًا بهذا الاسم! خذ ابنك بيده. بيّن له مرّة جديدة طريق الحياة، كما يفعل جميع الآباء.

تقترب من الباب. تقرعه. يخترقك صرير الباب. تظهر لك من شقّ الباب جمجمة شابّ حليقة. عينه اليمنى عوراء. بدلاً من القزحيّة، ثمّة شبكة من الأوردة الصغيرة الحمراء تظهر على القرنيّة. يتفحّصك ويسألك بإشارة من رأسه. تستجمع كلّ قواك وتجيب بحزم:

ـ نهار طيّب! جئت لأرى مراد، ابن داستاغوير. إنّه ابني.

يشقّ الشابّ الباب أكثر. اختفى التساؤل من وجهه. يستدير بحيرة نحوه رجل جالس خلف مكتب كبير في عمق القاعة يكتب.

ـ سيّدي الرئيس، إنّه والد مراد.

عند هذه الكلمات، يصبح جسد الرّجل كقطعة صخر. يقع القلم من بين يديه. تصطدم نظرته بنظرتك. صمت ثقيل يملأ الفضاء الذي يفصلكما. في مجهود خارق، تخالف جسدك في البقاء مستقيمًا وتخطو خطوة إلى داخل القاعة. إلاّ أنَّ الصّمت المهيمن ونظرة رئيس العمّال يكبّلان شيئًا فشيئًا كاحليك. تترنّح ساقاك. يلتوي جسدك. ماذا فعلت يا داستاغوير؟ طلبت أن ترى مرادًا. تريد أن تقتل مرادًا! ليحفظه الله. لن تقول له شيئًا. إن سألك عن سبب زيارتك، ستجد شيئًا ما، حجّة ما، ليس عليك سوى أن تقول له إنّ عمّه جاء من القرية وإنّك رافقته في عودته بالسيّارة إلى «پول ـ إي ـ خورمي». ستقول إنّك انتهزت هذه المناسبة كي تأتي لتعرف أخباره. هكذا فقط. الآن، ستعود إلى القرية. ليحفظك الله يا مراد!..

ينهض رئيس العمّال ويتّجه نحوك وهو يعرج. تحطّ يده الضخمة على كتفك المتعب. تشعر أنّ

المنجم بأسره، بهضبته الكبيرة، بفحمه كلّه، بمبانيه المكعّبة الباطونية انحطّ على كتفيك. يلتوي جسدك أكثر فأكثر. يلتفّ حولك رئيس العمّال. قامته ضخمة. يعرج. تتسلّقه نظرتك. تجد نفسك أمام جبل. فاه فاغر على أهبة أن يلتهمك. تنبثق أسنان سوداء كبيرة عبر شاربين كثّين. تفوح منه رائحة الفحم.

ـ أهلاً وسهلاً أيّها الأخ المحترم. لا بدّ أنّك تعب. اِجْلِسْ.

يقودك إلى كرسيّ خشبيّ، أمام طاولته. تجلس. يعود رئيس العمّال وهو يعرج، إلى مكانه، على الجانب الآخر من الطاولة، على الجدار الذي يواجهك، وبالضّبط فوق كرسيّ رئيس العمّال، تستوي صورة ضخمة له: كان يرتدي البزّة العسكريّة ويتباهى بابتسامة منتصرة تحت شاربيه السوداوين.

استوى رئيس العمّال في جلسته على كرسيّه. عاد ليتحدّث وهو يفرفط كلماته، كلمة كلمة:

ـ لقد نزل مُراد إلى المنجم. إنّه في الخدمة. هل تريد كأس شاي؟

بصوت مرتجف تقول:

ـ هذا لطف كبير منك، سيّدي رئيس العمّال.

ينادي رئيس العمّال الرّجل الذي أدخلك ويطلب الشاي.

شعرت بالعزاء من أنّ مُرادًا غير موجود هنا للتوّ. يترك لك ذلك بعض الوقت كي تدبّج جوابًا متناسقًا، كي تجد الكلمات المُطَمْئِنة. ربّما أراد رئيس العمّال مساعدتك. تسأل:

ـ في أيّ ساعة يعود؟

ـ عند الثامنة مساء.

الثامنة؟ سيعود شاه مارد عند السادسة.. أضف إلى ذلك، أين سيكون باستطاعتك أن تنتظره حتّى الثامنة؟ ماذا ستفعل؟ هل من وسيلة لتمضية اللّيل هنا؟ ماذا سيكون عليه حال ياسين!

ـ أيّها الأخ المحترم. إنّ مُراد بخير. إنّه على علم بما حصل لعائلته. لترقدْ أرواحهم بسلام...

لا تسمع بقيّة الكلام. مُراد على علم بذلك؟ تجترّ هذه الجملة كما لو أنّك لم تفهم معناها، أو كأنّك لم تسمع جيّدًا. هذا صحيح، في عمرك، يُصبح سمع المرء ثقيلاً، أو يصله الكلام على عكس ما يسمع. تسأل بصوت عال:

ـ إنّه على علم بذلك؟

ـ أجل يا أخي، إنّه على علم.

لماذا لم يعد إلى القرية إذًا؟ كلاّ، لا يمكن لمُرادك أن يتصرّف على هذا النحو. بالتأكيد إنّه مُراد آخر. على كلّ، ليس ابنك من يدعى مراد فقط. في هذا المنجم، من المحتمل أن يكون هناك عشر رجال يحملون الاسم ذاته. ربّما لم يفهم رئيس العمّال بأنّك تبحث عن مراد، ابن داستاغوير. ربّما كان سمعهُ ثقيلاً أيضًا. لِتُعِدْ تقديم نفسك!

ـ إنّني أتحدّث عن مراد، ابن داستاغوير من أبقول.

ـ بالتأكيد، إنّني أتحدّث عنه هو نفسه.

ـ لقد علم ابني مراد بأنّ والدته وزوجته وأخاه قد هلكوا و. . .

ـ أجل يا أخي. حتّى أنّهم قالوا له إنّك أيضًا. . . ليحفظك الله. . .

ـ لا زلتُ على قيد الحياة. ابنه أيضًا لا يزال حيًّا. . .

ـ ليتمجّد القادر. . .

بالضبط لا. على القادر أن لا يتمجّد! كان من الأفضل أن يهلك ياسين وداستاغوير أيضًا! كي لا يرى الأب ابنه، والابن أباه في بؤس مماثل، في

عجز مماثل.

ما خطب مراد؟

لا شكّ أن سوءًا أصابه. لقد انهار المنجم ودفن مراد في مكانه، تحت الفحم. من أجل المولى، يا رئيس العمّال، قل لي الحقيقة. ما الذي حدث لمراد؟

تتحرّك عيناك. تتوسّل إجابة من كلّ شيء، من الطاولة التي تقضمها المسامير، من اللّوحة التي تخلّد رئيس العمّال، من القلم الذي يرقد على الورقة، من الأرض التي تهرب من تحت قدميك، من السّقف الذي يتراءى كأنّه هابط، من هذه النافذة التي لن تُفْتح أبدًا. من حقل المعادن هذا الذي ابتلع ولدك، من هذا المنجم الذي سوّد عظام ابنك.

ـ ماذا حصل لمراد؟

تكلّمت بصوت عال.

ـ لا شيء، إنّه بخير.

ـ لماذا إذًا لم يأت إلى القرية؟

ـ منعتُه من ذلك.

تقع البقجة من على ركبتيك إلى الأرض. تستعيد

نظرتك جريها المجنون وينتهي بها المطاف بأن تتوه بين الأخاديد المسودّة التي تلتهم وجه رئيس العمّال.

مرَّة جديدة تقتحم الأسئلة روحك ويجتاحها البغض.

من يظنّ نفسه رئيس العمّال هذا؟ من يعتقد نفسه؟ أنت والد مُراد، وليس هو! لقد خطفوا لك مراد. لم يَعد مراد موجودًا. لقد اختفى...

يرنّ صوت رئيس العمّال الأجشّ في الغرفة:

ـ كان يرغب في الذهاب. لكنّي لم أدعه يفعل ذلك. وإلاّ لكان قتل نفسه أيضًا.

وإذًا! الموت أفضل من العار!

جاء الخادم بفنجانيّ شاي، ومدّ لك واحدًا. وضع الثاني أمام رئيس العمّال. تبادلا بعض الكلمات، كلمات لم تسمعها، أو لا تريد أن تسمعها.

بيديك المرتجفتين تمسك الفنجان الموضوع على ركبتيك. بيد أن ركبتيك ترتجفان بدورهما.

تسقط بعض النقاط على ركبتك. لا تشعر بالحريق. لأنّك تشتعل من الداخل، بنار أقوى، النار التي تؤجّجها أسئلة الأصدقاء المستقصية، أسئلة الأعداء، الأقارب المجهولين.

ـ إذًا؟

ـ أرأيت مراد؟

ـ هل أخبرته؟

ـ كيف أخبرته بذلك؟

ـ ما كانت ردّة فعله؟

ـ ماذا قال؟

بماذا ستجيبهم؟ لا شيء. لقد رأيت ابنك. كان على علم بكلّ شيء. لكنّه لم يتحرّك كي يدفن، مثلما ينبغي، والدته، أمّه، أخاه. مراد جبان عديم الشرف.

ترتجف يداك. تضع فنجان الشاي. تشعر داخلك بشيء على أهبة الانفجار. لقد اتّخذت تعاستك الآن شكلاً، تحوّلت إلى قنبلة، ستنفجر، ستجعلك تنفجر؛ مثل فاتح الحارس. ميرزا قادر عليم جدًّا بأمور الأحزان. يتخلّع صدرك. مثل منزل

قديم، منزل فارغ. . . خرج مراد من صدرك. ما همّ إن تداعت المنازل الفارغة.

ـ سيبرد شايك أيّها الأخ المحترم.
ـ سحقًا.

تسكت. يتابع رئيس العمّال كلامه:
ـ لغاية أوّل من أمس، كان مُراد لا يزال يشعر بالسّوءْ. لم يعد يأكل، لم يعد يشرب. انسحب إلى ركن في غرفته. بقي جامدًا. لم ينم. ذات مساء، وفي عزّ اللّيل، خرج عاريًا بشكل تامّ، وذهب إلى حلقة العمّال وطرق صدره حتّى الفجر. ثمّ بدأ يركض حول النّار ورمى نفسه بين ألسنة اللّهب. أنقذه أصدقاؤه. . .

تنفكّ عقدة يديك. يغادر كتفاك ملاذهما بالقرب من أذنيك، أنت تعرف مرادك. مُرداك لا يخضع. يشعل النّار أو يحترق. يُدَمِّر أو يُدَمَّر. هذه المرَّة هو من احترق، هو من دُمِّر.

لكن لماذا لم يعد؟ لماذا لم يختر أن يُضحّي بنفسه على رفات أهله. كان على مُراد داستاغوير، أن يعود إلى القرية، كان عليه أن يضرب نفسه بالقرب من أمواته لا بالقرب من النّار. قيل له إنّك

متّ أيضًا. حين تموت، وعلى ذلك أن يحصل يومًا لأنّك لست خالدًا، ماذا يفعل؟ هل يسهر على جثمانك؟ هل سينزلك إلى القبر؟ كلاّ. ستتعفّن جثّتك في الشمس، بلا كفن، بلا قبر. . . مراد هذا ليس مرادك. لقد باع مراد روحه إلى الأحجار، إلى النّار، إلى الفحم، إلى هذا الرّجل الجالس قبالتك، الذي يتنفّس الفحم، هذا الرّجل الذي يقول:

ـ مراد أفضل عمّالنا. الأسبوع المقبل، سنرسله إلى دورة محو الأمّيّة. سيتعلم القراءة والكتابة. ذات يوم سيحظى بمنصب، اخترناه كي يمثّل عمّال المنجم، لأنّه رجل ذكيّ، عامل، وثوريّ. . .

لا تسمع بقيّة الكلام. تفكّر بميرزا قادر. مثله تمامًا، عليك أن تختار إمّا أن تبقى وإمّا أن ترحل. لو عدت ورأيت مراد ذات يوم، ماذا ستقول له؟

ـ صباح الخير.

ـ صباح الخير.

ـ أنت على علم بالأمر؟

ـ أنا على علم.

ـ ليحفظك الله.

ـ ليحفظك أنت أيضًا.

وماذا بعد؟ لا شيء.

ـ الوداع.

ـ الوداع.

ليس لديكما شيء آخر تقولانه. ما من كلمة واحدة، ما من دمعة، ما من تنهيدة.

تمسكُ بالبقجة الموضوعة على ركبتيك. إنّها تحتوي على تفّاح لمراد. لكنّك لا تريد أن تعطيه إيّاها. المنديل، يحوي عطر زوجتك. تنهض وتقول لرئيس العمّال:

ـ عليّ أن أعود. أرجو منك أن تقول له بأنّ والده كان هنا، بأنّه على قيد الحياة، بأنّ ابنه ياسين لا يزال حيًّا. أرجو منك أن تعذرني...

الوداع يا مُراد. تغادر الغرفة محنيّ الرّأس. لا يزال الهواء كثيفًا، ثقيلاً، قاتمًا. تنظر إلى الهضبة، تبدو لك بدورها أكبر، أسود. يتسلّقها رجال ذوو وجوه أكثر تعبًا، أكثر سوادًا. هذه المرّة، تتجنّب التحديق بها كما فعلت عند وصولك. شرط أن لا يكون مراد بينهم! تتّجه إلى قلب المنجم.

بالكاد سرت بضع خطوات حتّى يسمّرك صوت أرضًا.

ـ بابا!

إنّه صوت مجهول. شكرًا إلهي. تتعرّف على صوت خادم رئيس العمّال الذي يقترب منك على عجل.

ـ بابا، أرجو أن يبقى الكلام بيننا سرًّا. قالوا لمراد إن المقاومين والخونة قتلوا كلّ عائلته، زاعمين أنّ السبب عمله في المنجم. لقد أخافوه. لا يعرف مراد أنّك على قيد الحياة.

تبدو أكثر حزنًا من ذي قبل، أكثر عجزًا أيضًا. تستدير نحو مبنى رئيس العمّال. تمسك بالخادم وتأمره:

ـ خذني إلى عند ولدي!

ـ هذا مستحيل يا «بابا». أوّلاً، ابنك في قعر المنجم. إنّه يعمل. أضف إلى أنّ رئيس العمّال سيقتلني لو عرف. اِرْحَلْ من هنا يا بابا! سأقول له إنّك كنت هُنا.

يستعجل الخادم أن يتحرّر من عناقك له.

بسرعة، تضع بقجتك على الأرض. تبحث في جيوبك. تخرج علبة «الناسوار» وتعطيها إلى الخادم. ترجوه أن يعطيها إلى مراد. يأخذ الخادم العلبة ويبتعد بسرعة.

يعرف مراد علبة «الناسوار» خاصّتك. إنّه هو الذي أهداك إيّاها حين قبض أوّل راتب. ما إن يرى العلبة، حتّى يعرف أنّك على قيد الحياة. إن جاء ليبحث عنك. ستتعرّف إلى مُرادك. إن لم يأت، لن تحظ بمُرادك. اِذْهَبْ وابحثْ عن ياسين وعُدْ إلى القرية. انتظرْهُ هناك بضعة أيّام.

تحثّ خطاك نحو المدخل. تصل إلى الباب. لا تنتظر شاه مارد وتبدأ بالسير نحو الهضاب المعتمة. يخنقك النحيب. تغلق عينيك وتترك الدموع تنساب بهدوء إلى صدرك. داستاغوير؟ كن رجلاً! الرجل لا يبكي. ولمَ لا؟ دع حزنك ينهمر إذًا.

تسير جنب أوّل هضبة. تستبدّ بك رغبة إلى «الناسوار». لكن ليس لديك منه أيّ شيء. ربّما كانت العلبة الآن بين يديّ مراد.

تبطئ خطاك، تتوقّف. تنحني. بطرف

أصابعك، تقطف ضمّة من الأرض الرماديّة، وتضعها تحت لسانك. تستعيد سيرك. يداك المعقودتان على ظهرك تمسكان ببقجة «الغول ـ إي ـ سيب».

نحن في هذه الرواية أمام الشعب الأفغانيّ الذي يواجه الرّعب في كلّ لحظة من لحظات حياته. يبدأ كلّ شيء عبر مجزرة ارتكبها الجيش السوفياتي بحقّ قرية أفغانيّة. ولم ينجُ من هذه المذبحة سوى جدّ عجوز وحفيده ياسين الذي أصيب بالصمم: «القنبلة كانت قويّة جدًا أسكتت كلّ شيء. أخذت الدبّابات أصوات الناس ورحلت.» والدبّابات أخذت صوت الناس ومضت.

يروي الكاتب قصّة الرحلة التي يقوم بها الجدّ والحفيد للقاء والد ياسين. رحلة آلام عبر أفغانستان المهدّمة التي يلفّها الغبار والرّماد.

ولد عتيق رحيمي عام ١٩٦٢ في كابول وغادر أفغانستان إلى باكستان بسبب الحرب ومن ثمّ طلب اللجوء السياسيّ إلى فرنسا حيث يعمل حاليًا في إخراج الأفلام

تصميم الغلاف رائد الجندي

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت